أصوات أدبية



الـغجــــر

رواية

أحمد محمد حميده

٩ يناير ١٩٩٥

المراسلات باسم مدير التحرير علي العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى – القصر العيني – القاهرة – رقم بريدى
١١٥٦١

أصـــوات أدبـــية

سلسلة إسبوعية

تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة

(١)

عن الكبت ... والأسى

صدقونى ..

ماكنت أرغب فى كتابة هذه الحكايات، فقد عشت بينكم عمراً ليس بالقصير، عمراً شحنتموه أنتم بالحيرة والغرابة والغموض. عمراً ، كان ذهنى مقفلا فيه عنكم، إلا أنه كان جميلا.

يومكم، كان يعاش بالسنة، كل لحظة تعاش كما يجب أن تكون ..

صدقونى..

إننى أعتذر عن غبائى وتسرعى، انشغال رأسى، ذلك الذى يجلب لى المصائب..

صدقونى..

مافكرت يوما أن أعريكم، أو أنزع عنكم الحجاب، أو أعرف الناس بكم، لكن شعور الكآبة المحبط بعزلتى النائية بسطح غرفتى تولانى، والفراغ المستبد فيما بين السماء والسطح،

لم يعد رأسي يحتمل وطأة الكتمان.. وحش الحرمان الرابض بي، السر المخبوء بداخلي، والحب المجهد ل «دودي»، كان على أن أصرخ، أعترف بأنني خائن.

وأنني، أحببت، على غفلة منكم، دودي، تلك التي تقيم معكم، تلك الأم الشابة، الزوجة، العشيقة والمعشوقة. إنني آثم..

وأنتم أيضا، آثمون..

أودعتموني التوهج والشوارع حتى الانصهار، لأعالج اللوعة والوجد بغرفتي النائية تحت نير كتب معلقة على أمل واه..

ما كانت دودي تود لي الهلاك، أو الهروب، أو الابتعاد، فليس بالامكان الانفلات من قبضاتكم..

وما كنت أود لها التشهير، أو الاندماج في، وهدم بيتها الذي هدمتموه أنتم..

إنني نادم على كتابة هذه الأوراق..

هاهي ملقاة أمامكم، تحت أقدامكم.. بأرض الشارع، والغرفة، تطلب التمزيق والحرق..

أناشد كل من يعثر على ورقة منها أن يحرقها، فنشرها لن يجدي.. فإنني لن انتفع بها، ولن تنجيني من أيديكم المتطاولة، والموت. ربما أكون بمنجى عند حرقها .. لكن كيف.؟ عبث.
وكل الكتابة عبث، الكون، والحراس، عبث، عبث..

مؤامرة بعث الموتى..

شلت حركتى، توقفت مأخوذا . واهن البدن، مستنفد القوى بشركة النحاس، العائد منها تواً، متخذا أسهل الطرق للوصول إلى بيتى المتطرف بحذاء السور السلكى الشائك..

دائما ما كنت أتساءل، فى نفسى، عما يمكن تواجده فى حقل به ثلاث نخلات، محاط بسور من السلك الشائك، وكأنه معسكر ملغوم، محظور الاقتراب منه.. الذى رأيته..

كان مقتولا بالفعل.. ينزف الدم من جسده الملقى بحذاء السور. دم متخثر ودافىء، يحيط بجسده الممدد على ظهره.. نعم، كان جسده ممدداً، ملوثا بالدم والطين، ملتوى العنق، مشرع الذراعين، (مفنجل) العينين، يبحلق نحو الصف الآخر من الحقل، صف العمارات الطويلة المرصوصة، مظلمة كانت وصامتة، يسودها الغموض والغرابة..

ساورنى خوف، ابتلعت ريقا جافا وأدرت وجهى، وتخيلت عينيه تنظران نحوى، مباشرة، فالتفت. رأيت عينا مغمضة، وأخرى مفتوحة...

ابتعدت خطوة، وقد فكرت فى الجرى.. لكن عينه المغمضة انفتحت، فارتعدت، وقلت فى نفسى، ربما لا يزال حيا، ويمكن إسعافه.. لكن الدم المنبثق عن بدنه الثابت يكفى لموته..

كان القمر طالعا، وبعض ضوء شاحب ينبعث من لمبات متباعدة..

يبدو أنه قتل منذ حين، منذ ساعة، أو أقل، وأن القاتل لابد وأن يكون على مقربة من الجثة، وهو الآن مختبىء بمكان وينتظر ذهابى.. أو أنه ينتظر صراخى، مع أننى لن أصرخ، ليس فقط لشفط الشركة لقوتى، بل، أيضا لسيطرة الرعدة على مشاعرى، ولمداومة العينين المصرتين، على الانفتاح والاغماض، فقد خيل إلى أن العينين تتحركان بدأب متعمد، وأنه ينظر إلى وجهى، بحقد، كأنه يحثنى على الانصراف، أو الغيرة لكونى واقفاً، بينما هو ممدد، مخذول، مقتول...

وليت وجهى شطر البيوت، على رغمى، وكان لابد لى من صرخة.. لكن نظرته المحدقة بكتمان الغيظ تحركت - أو هكذا خيل لى - ليزيد من خوفى. حينئذ، توقعت قيامه، والتفاف قبضتيه حول رقبتى..

وأدركت أن هذه مجرد تخيلات مرعوب، وأن رأسى يجسد لى

أشياء غير معقولة، فانطلقت بخطواتى المتعثرة، لأبتعد..

بدأت أجرى.. ملتفتا - بين الحين والآخر - إلى الخلق، وأحدث نفسى بأنه حى، وأنه يتابعنى، يقترب منى لأتوقف عن الجرى.. يقوم، ويجرى خلفى، وعند التفاتى إلى الوراء يستلقى ممدداً...

تفاقمت تخيلاتى ومخاوفى وتمنيت لو أجد أحدا من سكان العمارات المصمتة ليؤنسنى..

وكنت أجرى، متصورا أننى قطعت منتصف الشارع، هذا الشارع المستطيل، الممتد أمامى، وكأننى فى كابوس، فهو يمتط، وكأننى لم أتقدم خطوة، وأن الجثة تتبعنى بالفعل، وسوف يطبق على رقبتى الآن، ويقتلنى... توقفت، وشىء من الهدوء يطامن قلبى..

كان هناك رجل يقترب منى..

حين رأيته، عن قرب، أدركت بأننى أراه دوما بالمنطقة، فهو ممن يعيشون هنا..

قال لى بصوت شرس مشوب بالدهشة:

- مالك.. ماذا حدث..؟

أشرت له نحو المكان الملقاة به الجثة، وقد تقطعت أنفاسى، ابتسم، فوضح جلد وجهه السميك متغضنا..

قال بعد أن تأملنى وطالع ساعته..

– عملوها.؟ عال..

قالها وكأنه يحدث نفسه، ثم وضع ساعته فوق أذنه، وتركنى فى استغرابى.. ثم عبث فى جيب جلبابه وهو يقول، وكأنه يفشى إلى بسر خطير.

– لا تقل لأحد أنك رأيته..

– إنه مقتول هناك..

قاطعنى بصوت تنمو به نبرة غضب..

– أعرف..أعرف..

– أنت قاتله.؟

– هو لم يمت بعد.

– إنها جثة، جثة غارقة فى الدم.!

ضايقه انفعالى، وقد تنامى غضبه، قال..

– إسمع ما أقوله لك..

ونظر لساعته لثالث مرة، وفكرت بأنه القاتل، فقد بدا عليه الارتباك، وقال..

- كأنك لم ترها . أفاهم أنت.؟ إنها جثتى، وأنا حر فيها..

قلت مستغربا..

- لكن كونها هكذا! عرضة للكلاب...

قاطعنى.

- أنا حر..

وخطوت خطوة لاتجاوزه قليلا.. قلت.

- أنت حر..

فاستوقفنى شاهراً بوجهى مطواته الحادة النصل، قال مهددا.

- هذا عملى، أتسمع.؟ إمش فى سكتك، وكل عيشا.. سوف أتصرف أنا بمعرفتى،، أفاهم أنت..؟

وكيف يكون الفهم.؟

تابعت سيرى ببطء وعلى حذر، وكان يعاتب نفسه بغضب شديد..

- راحت على نومة.. كان يجب أن أصرخ منذ ربع ساعة، كان يجب العثور عليه من بدري.. سوف أحاسب على هذا الاهمال..

وأيقنت - والحال هكذا - أنه هو القاتل، وعليه حالا، أن يوارى جثته فى مكان ما.. وأخذت على عاتقى مهمة أبلاغ الخبر لأهالى الحى، فالقتيل، بالتاكيد، من ناس المكان.. ومهما كانوا - الأهالى الشرسنين - إلا أن عمليات القتل لن ترضيهم..

حين تباعدت خطواتى، فوجئت بصرخات الرجل تملأ جنبات الليل الأسود..

قتيل.. قتيل.. الحقوا.. قتيل..

وألجمت الدهشة لسانى.. توقفت فوق درجات السلم.. ثم واصلت الصعود بين الدهشة والصراخ..

رشقت مفتاحى بثقب باب غرفتى الخشبى.. وتناهى إلى سمعى عويل نساء محترقات القلوب، عويل رتيب كأنه لحن جنائزى سابق التخطيط، ثم أصوات جمهورية تصادر العويل وتمنع النساء عن البكاء..

عدت مسرعا إلى أسفل.. دفعنى شعور بضرورة التواجد فى المكان كشاهد عيان أوحد، خاصة وأن دودى ستكون ضمن

المشاهدين. كانت النسوة واقفات برصيف العمارات.. والرجال مظلمي الوجوه، واقفين بحذاء الحقل..

لم تكن دودى متواجدة.. قلت حين دنوت وأصبحت أتوسط الفريقين...

- إننى رأيت..

صرخت النسوة، توارى صوتى.. قلت..

- لقد رأيت الجثة.. و ...

تصايح الرجال متعمدين مصادرة صوتى..

- أسكت..أسكت..

غاضبين كانوا وملتحين.. اندهشت وقلت..

- أنا رأيت الجثة وكان...

دفعنى حسن رامبو بحركة مباغتة، فارتددت خلفا، وتوقفت، موقنا بأن أولئك - حتما - من أهل الجنوب المقيمين بالاسكندرية، وأنهم لن يغمض لهم جفن حتى يثأروا لدم فقيدهم الغالى، سمعتهم يقولون..

- الميت يخصنا.. ونحن أحرار فى موتانا..

- توكل أنت على الله..

حدق أحدهم فى وجهى وسألنى بغيظ.

- هل رأيت وجه الميت.؟

قلت على الفور..

- طبعا..

- تقدر تتعرف عليه لو رأيته..؟

توجست وقلت فى نفسى، ليسوا بأهله جميعا، وأنهم مشتركون - بالتأكيد - فى مسألة قتله.

- طبعا .. ممكن أتعرف عليه .. لكن ما أهمية معرفتى به وقد مات؟

وانقلبت سحنة الرجل .. صرفنى بيده..

- أذهب أذن .. نعرف القاتل والمقتول..

مسنى رعب ما..

وبدأوا يدفعون جسمى بأجسادهم الكبيرة، يدفعوننى بالتناوب، وهم يتساءلون.

- جديد هو بالمكان.؟

- ساكن هنا من مدة.

سألنى أحدهم بصوت خشن..

- ماذا تعمل ياولد أنت؟

وارى الخوف استغرابى ، فقال أحدهم،

- يبدو أنه يعمل فى شركة النحاس.

- يعنى غلبان.؟

- متزوج ؟

- عايش لوحده..

منحونى ظهور الجهامة، تاركين برأسى وعيد رؤوسهم المتحجرة وأعينهم النارية.. قلت فى نفسى.. مالك أنت وموتاهم.؟ وعزوت أفعالهم هذه لمصابهم الأليم..

وابتعدت، وصوت أحدهم يصيح فى الخلاء.. فى الريح، ليسمع كل النائمين من سكان الحى.

- أخى مات .. البقاء لله وحده.. وغدا أخوكم يموت، الموت علينا حق .. وتعالت جملة الموت، علينا حق ، وكأنما يرمز لشىء ما، لإنسان ما، مخبوء بمكان ما..

* * *

ولجت باب غرفتى، وفكرت فيما يمكن أن يحدث لو لم أحضر الجنازة، فمهما حدث منهم، فإنهم حزانى، وينبغى الوقوف إلى جانبهم، ولا ضرورة لأخذ مواقف عدائية مع أناس شرسين..

نعقت فى الشارع صفارة عربة النجدة.. ثم صفارة الاسعاف، ثمة حركة تموج بالليل، أصوات تعلو...

وغفوت قليلاً..

أيقظنى صوت «ميكرفون» الجامع القريب ينادى لصلاة الفجر..

كان الشارع غارقاً فى سكون رهيب.. لا أحد .. لكن البيوت المصمتة بدأت تلفظ بعض الرجال الملتحين ،.. يرتدون الجلابيب البيضاء.. كانوا ضخاما.. يتمتمون ويدعوكون أسنانهم بقطع السواك، متوجهين شطر الجامع القريب، المقام حديثا بوسط البيوت ، بناصية شارع السلام...

لم يتركنى شيطان الشهامة اللعين أثناء صلاة الفجر.. تخيلت أننى أحد الأبطال الذين عليهم استنهاض الهمم، واستخلاص الحق من بين الباطل، أن أقول للسادة المصلين ذوى الذقون والمسابح بأن قتيلا بالليل قد قتل..

أقعدونى بنظرات الشراسة، وتوقعت بأنهم ينهون عن الحديث فى المسجد .. لكنى قلت..



– لقد كان الأمس..

التفتوا نحوى وكأننى ارتكبت إثما..

– لكننى ...

أطالوا فى النظر ، ومـا أدركت بـأنهم يريدون اسكاتى ومـا يودون سماعى إلا حين خرجنا من المسجد .. كانوا يتمتمون ، وحبات المسابح تتساقط كأنها ندف من ثلج تساقط على جموح الغضب...

وبين هاجس الدهشة، والغضب الدفين .. غفوت..

أهم خائفون منى.. أم أنا الخائف ..؟

أهم متقون لحد البعد عن المهازل الدنيوية ؟..

فى الصباح رأيت رجال «الفراشة» يدقون بالأرض أعمدة بناء السرادق، سرادق كبير بعرض الشارع .. ثبتوا على جانبيه سماعات ضخمة ، ثريات فاخرة .. مقاعد جلدية .. ثم جاء الرجال الأقوياء .. رجال الأمس .. وتوقفوا فى صمت .. لم يكن بالصمت الحزين أو الفرح ..

كان هناك نعش مركون بأحد مداخل البيوت ، يخيط فتحاته رجل ليس بالغريب على ،..

دخلت السرادق على وجل ، فوجوه الأمس الغضبى متجهمة

ما تزال ، لامسوا يدى الممتدة إليهم بقرف .. قعدت ، وحدقاتهم الدائرة فى محاجر العيون منبعجة الأجفان ترمقنى متعمدة ، فتشاغلت بالنظر إلى الشارع .. كان ضابط الشرطة الشاب قادما .. يتقدم بعض الرجال لابسى الزى المدنى.. صافح الرجال مصطنعى الأسى وجلس .. إلى جوار «على الانجليزى».

همس الضابط فى أذن على.

– ألن تكفوا عن قتل بعضكم.؟ هذه القصة أصبحت مشهورة..

قال على الانجليزى بخبث واضح.

– لقد رأيت الجثة بنفسك ليلة أمس.

قال الضابط :

– كانت مغطاة بملاءة ، ولم أكشف عنها..

قال على بنفس الخبث.

– ولماذا لم تكشف عليها ؟

– لأننى أعرف الألاعيب التى تلعبونها ، وسوف أكشفكم ذات يوم.

– الميت مات يابك.

نهض الضابط وكان يهمس .

- لعله يموت بحق .. سأحييه مرة واقبض عليه.

قال على بتحد..

- المحيى هو الله.

والمقرىء يتلو ... جلس رجل إلى جوارى .. اندهشت حين نظرت إليه .. أدركت بعضا مما يفعله هؤلاء الشرسون.. مال الرجل على أذنى ، كان هو صاحب جثة الأمس. قال..

- تعرفنى .؟

لفنى الصمت المدهوش، أعاد سؤاله.

- تعرفنى .؟

قلت مأخوذاً..

- لم أرك ...

- أبداً ..؟

- أبداً..

- ولو عرفتنى .؟

- أكون مخطئا ..

- القتيل يشبه لى.؟

- ماذا تريد أن يكون أنت؟

- يشبه لى ؟

- أبدا .. لقد مات ..

- ولو كان حيا .؟

- لا أعرفه ..

- ولو عرفته ..

- ماذا يحدث .؟

- أقتلك...

تركنى واقفا ، مذهولا ..

كيف أصبح حيا وقد كان جثة ؟!

وختم المقرىء تلاوته..

نهض أحد الملتحين ، تحدث فى « الميكرفون»..

- وسوف تدفن الجثة، بإذن الواحد الأحد بمقابر عامود السوارى ، وسوف يؤخذ العزاء هناك..

استغربت .. لماذا عامود السوارى بالذات .؟ نحن فى باكوس

ومدافن أبو النور أقرب، أو مقابر المنارة ..

ورفع الرجال النعش ، تبعه المعزون ... ساروا جامدين بين عويل النساء .. بدأوا المسيرة ، شارع مصطفى كامل ، شارع أبى قير ، العامود ، توقفت المسيرة..

كان الضابط الشاب واقفا بالباب ينتظر قدومنا .

لمحت إمارات الغيظ والارتباك بوجه على الانجليزى.. استغربت لارتباكه الواضح .. كنا نتخطى نتوءات الأرض بأقدامنا رافعين النعش عاليا - يحيط بنا بعض الرجال ذوى الزى المدنى .. ثم هوجم النعش .. مزقوا قماشه ونظروا فى الجثة المتكفنة.

وبين عملية النظر والتمزيق ، شبت معركة اندهشت لقيامها المفاجىء المتعمد.

كانوا يقولون :

- يدفن فى مقابر الصدقة.

- بل مقابرنا موجودة.

وتشابكوا بالأيدى.. تزاحموا بشكل شرس ، دفعوا الرجال ذوى الزى المدنى وحملوا النعش ، وتقدموا به فى حين ولى

الضابط وجهه المتجهم لشواهد القبور ، وقفل راجعا، يتبعه رجاله المتربون ، كنا قد بلغنا بالنعش حافة القبر المفتوح...

كانت الجثة تتحرك تحت يد اللحاد ... هبط بها إلى القبر بحذر شديد ، وضعها بأسفل ، ثم صعد وهو يحمل صرة مستديرة. كأنه خلع عنها الأكفان ...

تناول على الانجليزى الصرة بين أعين المشيعين الذين تعمدوا الوقوف حول القبر ، كجدار دائرى سميك.

ثم صعد اللحاد ساحبا بيده يد صاحب الجثة الذى يهمس...

– البضاعة سليمة ؟

قال على:

– سليمة .

ألجمت الدهشة لسانى... هو ، هو الملعون صاحب جثة الأمس، متوعدنى فى السرادق ، هاهو يصعد – معافى – من الحفرة ، كأنه لم يكن بالنعش منذ قليل .. هاهى أشياؤكم البيضاء المخدرة، هاهى...

هاهو سكركم المطحون..

هاهو يخرج من الحفرة .. يودع بقلب النعش..

النعش الفارغ العائد إلى أرضكم. حى الفولى ، باكوس..

(٢)

المرشـــــد

فى الليل، ذبحوا فى الشارع كبشا .. شيدوا على النواصى سماعات ، للريح.. توقظ النيام وتبعث الصخب ...

بعد قليل ، جاءت سيارات فخمة ، عكست أضواء الشارع والثريات فبدت وكأنها المرايا .. فتحت أبوابها ، لفظت أنواعا شتى من الرجال غريبى الملامح والأبدان ، رجال ناطحت رؤوسهم الثريات المدلاة ، رجال من أرض أخرى ، زمن آخر ، ليسوا من الملوك ولا من الصعاليك ، هيئاتهم الهائلة تنذر بالخطر والنفوذ والمال .. يتحدثون ويتحركون ويضحكون بالمال ... استقبلوا بحفاوة وتقدير ، اقتعدوا الكراسى التى بالصدارة...

والذين بالداخل تمايلوا . تلاقت أبدانهم ، آذانهم والأفواه .. راحوا يتهامسون ... الهلباوى جاء .. جاء الهلباوى .. والذين تناثروا حول السرادق قالوا ...

كنت برأس الشارع ، يطوينى الصمت المدهش ، مأخوذا بذلك الذى يدور .. لمحنى على الانجليزى ، ثم مال على أحد

الأقطاب ، ثم همس الآخر وهو ينظر ناحيتى عبر المسافة القصيرة ، فأحسست بأننى أنوب ، بين ذاك الحزن المصطنع ، أنوب ، ترى ما بهم .؟ ماذا يدور بخلدهم .؟ ... ما جئت إلا لمجالسة أصدقائى المعمرين ، الذين يتسامرون تحت نافذة دودى.

لكن بعضهم مال على البعض ، وبدأوا يتحدثون بهمس بالغ الأهمية ، وكأنهم يتآمرون جميعا على تدمير العالم ... لكننى علمت فيما بعد أن أكثر اجتماعاتهم وأمورهم الخفية تتم فى مثل هذه الظروف .. تعقد الصفقات على هامش الحديث العادى ، وأن هذا يحدث عند كل عملية وبالتناوب..

دفعنى أحد أبناء الحى ، متعمدا .. قال :

– ألن تدخل .؟

امتزجت دهشتى بالخوف . فقلت :

– لا .. شكرا .. هذا ليس مكانى.

ابتسم فى خبث وهو ينظر نحو شارع البستان وقال :

– أعرف أين هو مكانك..

– لا يهمنى ما تعرفه عنى ..

وسرت . موليا له ظهرى ، قال :

- أنت حر .. ولكنهم سيغضبون منك ..

وجدتني مشدودا نحو بيت دودى الواقع بيسار السرادق، كان شباكها السفلى مواربا .. قصيرا كان بطول القامة، مجاورا لكشك عم مرعي بائع السجائر ، ملجئى فى وقت الكآبة ، أجدها دائما مستندة على الأفريز ، تتطلع إلى المارة بعينين واسعتين باحثتين، قابعتين فى وجه أبيض مستدير شهى الأوداج.. فأتخذ مجلسى إلى جوار عم مرعى ، أحدثه ويحدثنى ، موقنا بأنها ستشترك فى حديثنا . يأسرنى صوتها ويثير لدى أشجان زمنى البعيد .. بيتى المسكون بامرأة نصف الشيطان ، تحدثنى فى أمور عادية ، صوتها الأنثوى مزجه المكان بنبرة عطف مخشوشنة ، كانت تشملنى بارتجافة وجد .. أسألها عن أحوالها وأطفالها الأربعة المنطلقين فى الشارع كالكتاكيت، عن زوجها المحبوس .. فتهز رأسها ، بأن لا شىء عاد يهم .. لكننى أشعر بذلك الحزن الكامن داخلها .. ويأتى أطفالها من حولى ، يتحسسون جيوبى ، أقبلهم وأشترى لهم الحلوى من عم مرعى ..

ألتصق بهذه القطعة من الأرض ، أنسى كل شىء من حولى ، تلك الأعين البعيدة التى يمكن أن تفسر حديثى والتصاقى بما تهوى أنفسهم .. لم أفكر يوما فى التقرب إليها حتى الولوج إلى بدنها ، كان فى عينيها عالم غريب من الصعب ادراكه .. أهى غجرية .؟ ملامحها الهادئة لا توحى بذلك .. كنت أتخيلها كما

أريد أن تكون .. أتخيلها أحيانا فى عزلتى ، إلى جوارى .. امرأة يتنسم القلب ريحها، فى أجواء الشر المستحكم والمنتظر حدوثه فى كل حين .. أتخيلها بأطفالها يلهون حولى وهى تلهو وتمضغ اللبان.. أنا الوحيد بغرفتى النائية .. أحمل إليها الهدايا والطعام ، وأمنحها نقودى.. لتطهو لى..

سألت نفسى يوما ، لماذا هى دون نساء العالم ، لم أجد اجابة ، أسألوا القلب لو كان يستطيع النطق..

ناولنى عم مرعى سيجارة وكأنه يعيدنى إلى الوجود.

لفظت هى قشر لبها على الأرض ، وقالت :

– نعمل لك شابا.؟

ضحك عم مرعى وقال . وقد لمحت بعض العيون التى بدأت تراقبنى عن بعد .

– إبنة حلال.. لكن انتظرى حتى يأتى العجوزان.

– أبى يهبط الآن، وعم منعم على وصول.

كان عم منعم قادما بخطوة البطىء الذى يعثره السعال.

قال مرعى :

– هذا موعدهما .. لا يتخلفان عنه ..

ثم ظهر الحاج السباعى على عتبة البيت بوجهه المتغضن، يتوكأ على زمنه الموغل فى القدم .. كان عم مرعى قد أعد لهما مقعديهما ، صافحانى وجلسا ، تنهدا .. ثم تطلع السباعى نحو السـرادق وهز رأسه ، وتنهد .. شاركه عم منعم النظر ، ثم التنهد ، ونظر كلاهما إلى مرعى ، وابتسما فى تعجب .. جلس عم مرعى وهو يلم كورنيش قفطانه ، قال :

- دنيا يا حاج سباعى..

سعل الحاج السباعى وقال :

- نعم ياسيدى ، دنيا ..

وكنت أدرك أنهما يتهكمان على أصحاب السرادق، فانتبهت ، اذ كانا يتحاوران بأعين ملؤها الأسرار .. أشعل عم مرعى عود ثقاب وقال :

- أين راح الزمن .؟!

سألت الحاج السباعى وكنت أشعر نحوه بعاطفة.

- أرأيت الذى حدث أمس .؟

فوجئت بوجوم يكسو الوجوه .. كمموا الأفواه بأيدى معروقة، وكأنهم صعقوا لسؤالى.. اختلسوا النظر نحو السرادق ، قالوا فى همس .

- يارجل .. مالنا نحن .. كن فى حالك..

امتدت يد دودى بصينية الشاى ، نهضت لأخذها. كان صدرها ينحنى فوق الأفريز ، محبوسا. طالعنى شق النهدين ، قناة غائرة فى فتحة الثوب. لم استطع غض بصرى .. كنت متطفلا .. نظرت هى إلى وجهى واعتدلت ، تسد بيدها القناة وكأنها تعاتب نظراتى .. أيمكن أن يظل هذا النهر العذب بلا مبحر.؟ بلا شارب .؟ قالت بجرأة.

- نحن لا نخاف ياأبى.

نظر إليها الحاج السباعى بتهكم وازدراء..

- أنت لاتخافين .. نعرف ذلك، لكن نحن نخاف ..

لم أفهم ما يقصده الحاج السباعى .. أردت أن أفهم ، لكن عم مرعى غير مجرى الحديث فى حين هبدت دودى ضلفة شباكها فى غضب واضح .. قالت من وراء الشباك:

- نحن لا نسرق ولا نقتل..

قالتها وكأن شيئا مقرفا يكمن فى صدرها .. ولزموا الصمت، كأنهم سلموا بقولها هذا .. ثم تهامسوا بأنها ، مهما كانت ، امرأة. وفتحت الشباك وأطلت . نظرت إليها مؤيدا قولها بضم قبضتى.

– الخوف هو العيب الوحيد فينا .. لكن الخوف أحيانا يولد القوة لأصحاب الكرامة.

اعتدلت هى فى النافذة وشملتنى بنظرة تساؤل ، قالت بصوت هادىء :

– كلام جميل ، ماذا تعنى به .؟

كنت أعلم أنها تجهل القراءة والكتابة ، قلت:

– لو حافظ كل واحد منا على كرامته.. أصبحنا قوة، قوة..

هزت رأسها علامة على الفهم، قالت :

– صحيح أنت صحفى .؟

ضحكت أقول :

– أبدا .. أنا مجرد هاو.. هاوى كتابة ، وكتب.

– كتب...؟

– نعم .. كتب..

– ماذا تفعل بها .؟

– أطالعها .. وأكتب.

– ماذا تكتب.؟

– أكتب عن العيون الجميلة.

– ماذا تكتب عن العيون الجميلة.؟

– كلام فاضى، فى كلام فاضى.

كان الرجال الثلاثة يتهامسون . وهى تقول :

– يعنى ممكن تكتب عنى.؟

– تعرفين إذن أن عيونك جميلة.؟

– طبعا ، أعرف..

كتمت رجفة بأعماقى وقلت ضاحكا :

– أكيد سوف أكتب عنك ، حين أعرفك.

– ألم تعرفنى بعد .؟

سبحت فى عينين معاتبتين، قال الحاج السباعى حين وجدنى أطيل النظر :

– أنت تذكرنى بأيام الشباب، والله.

قال عم منعم :

– كانت هذه الأرض صحراء قاحلة .

قال عم مرعى :

– يقطعها نصفين شارع مسفلت طويل يصل حد مصر .

قال الحاج السباعى:

– دنيا ...

قال عم مرعى بصوت خافت :

– كانت صحراء واسعة ، قبل أن ينشئوا كوبرى الناموس.

تدخل عم منعم يقول ، وقد تناسوا رأسى المولى شطز دودى:

– كم سنة .؟ أربعون .؟ خمسون .؟

قال الحاج السباعى ، وكان أكثر الاثنين قوة..

– هذا الكلام من ستين سنة.

كان صوت المقرىء يعلو... سألت الحاج السباعى:

–لماذا لم تذهبوا لتقديم العزاء..؟

– الجنازة خاة والميت كلب.

مال السباعى على أذن عم مرعى وقال:

– الأخ لا يعرف شيئا بعد .

ثم همس يقول لى.

– هؤلاء ، لهم كل أسبوع جثة.

انتفض الحاج السباعى بعد مقالته هذه. ثم نظر عم منعم حوله وقال:

- للحوائط آذان ياحاج.

- هم لهم دنياهم ، ونحن لنا دنيانا.

وأطبق صمت مشبع بالتوتر والحذر ، دارت خلاله أكواب الشاى ، وأختلس إلى دودى النظر.. كانت ترقبنى وتحصر على حركاتى ،قلت :

- أنتم .. ألستم منهم.؟

قالت هى على الفور، بغضب:

- نحن منهم.؟!

ولوت شفتها السفلى استغرابا ، ثم سألتنى كأنها تختبر فهمى.

- أتعرف أنت من يكون هؤلاء.؟ لن تعرف طبعا.

وحط الصمت، كانوا يحاذرون ويحاولون التكتم.

سألت الحاج السباعى:

- أقصد أنت .. ألست من أهل الحى.؟

قاطعنى عم منعم قائلا:

- الحى هو الله.

ثم سأل الحاج السبلعى:

- ما رأيك فى شاى ابنتك؟

تجاهل - عن عمد - سؤال عم منعم ، وقال لى :

- نحن فى هذا الحى منذ أمد بعيد، لا نسأل ولا نُسأل، دع الملك للمالك..

ثم قال لعم منعم:

- ابنتى...؟

أجاب متهكما ، ثم نظر نحوها وقال:

- نعم .. أفضل شاى..

وغيروا مجرى الحديث.. تجاذبوا أحاديث أخرى، كأنهم يمحـون من رؤوسـهم كل مـا يمكن أن يكون قـد تعلق بالذاكرة...قلت فى نفسى.. إنهم خائفون.. خوفا شد كل حواسى، انتباهى، كفوا عن الكلام بغتة، ونظروا ناحية السرادق.
ثم قال عم منعم:

- سنقول لك ذات يوم.

قال عم مرعى :

- إذا كان فى العمر بقية.

قال الحاج السباعى وهو يضع كوب شايه الفارغ.

- نحن سكان الأرض الضعفاء.

أضاف عم مرعى ..

- نعم..

قال عم منعم وقد بدت عليه سمات القرف:

- حاملو أسرارهم.

همس الحاج السباعى يقول:

- شبان هذه الأيام لا يعرفون عنهم شيئا .

- نحن القدامى تحملنا الكثير..

قال عم مرعى :

- يجب أن يعرف أبناؤنا أصل هؤلاء.

- مفروض .. طبعا ..

قامت دودى ، ثم وضعت صدرها المندفع على الذراعين والأفرين، نظرت متعمدا .. فاعتدلت .. ثم وضعت الصدر مرة أخرى فشعرت بأنها تثيرنى ، ارتبكت مديرا شطر السرادق وجهى ، ولمحت طرف لسانها تغيظنى وتبتسم فاطمأن قلبى ،

قالت:

- لا تقولوا له شيئا..

ثم همست لى :

- أتريد أن تكتب عنهم..

قلت لها صادقا..

- بل أريد الكتابة عنك .. أنت ..

- وماذا ستكتب عنى .؟

- قلت لك .. حين أعرفك جيدا.. .

- إن كان الموضوع هكذا فلن تعرفنى أبداً..

قال الحاج السباعى بنفس النبرة التى تهكم بها على ابنته..

- أيوجد بالحى من لا يعرفك.؟ الحى كله كله..

أنامت هواجسى بصوتها الهامس :

- لن يفعلوا معى شيئا ..

وتحركت عيناها نحو السرادق بشكل يثير الشك ..

واحتوانا الصمت .. صمت فرضه قدوم بعض الشبان، كانوا يقتربون مسلطين نظراتهم المتسائلة والفاحصة نحونا مباشرة،

وكأنهم يستغربون لعقد هذا الاجتماع الليلى المعتاد.. كانت كل المنطقة تعرف بأننا نقتل بعض الوقت فى السمر والتدخين والحديث العادى.. إلا أن الليلة، كما توقعت وكما توقعوا هم، لم يعد اجتماعا عاديا.. وأدركت أن الأمور قد تغيرت، وأن العجوزين يحملان من أسرار المكان ما يخافه الأقطاب.

توكأ العجوزان وقاما.. أفصحت دودى عن غضب مفاجىء، وقالت:

– لماذا قمتما.؟

تماسكت : بنفسى ارتجافة غضب.. كان الشبان قد توقفوا على بعد خطوات .. أشعلوا السجائر بنظرات تحد.. بصقت دودى قشر لبها على الأرض بغيظ ..

تحرك العجوزان وتواريا فيما وراء الكشك.. استشعرت الخجل، رجلان يدنوان من حافة القبر، يخافان هكذا.؟

لابد وأن سرهما أخطر مما يتصور العقل.. أشعلت سيجارة، وغمزت لـ «دودى» بأننى أستهين بهم، وسوف أتحداهم، فابتسمت.

– لا يهمك.. إنه فتحى «باط» وأصحابه الصياع..

فكرت، وكانوا يتفرقون بعيدا.. تباعدوا .. إلا من فتحى «باط»

الذى ظل واقفا .. أيمكن أن يكونوا مبعوثين من قبل الميت الحى؟
قلت :

– كانوا ينظرون إليك ..

قالت بصوت ساخر :

– هؤلاء كلاب الحراسة.

ثم قالت بصوت منخفض :

– اذهب الآن وكأنك لا تعرف شيئا ، ستعرف كل شىء فيما بعد .. ابتعدت قليلا وكأننى أبحث عن الرجلين .. كانا قد تواريا، فى حين تقدم فتحى «باط» نحو النافذة.. استغربت حين وجدته، يتحدث إلى «دودى» بشكل أقلق بالى، قلق المحب الغيور.

كتبت فى أوراقى عن «دودى» هذه الأرض الحبلى بالأسرار.. هل تبوح لك بسرها الدفين.؟ ألديك الشجاعة.؟ إننى عشقتك، عشقت فيك القلب الأبيض، الذى لم يسطر فيه بعد كلمة حب صادقة .. كتابا كان، يفتحه الناس المحيطون بك، يدخلونه ويخرجون منه، ولم يجرؤ أحدهم أن ينقش عليه حرفا بدم قلبه، كلمة عشق .. القائمون حولك لا يجيدون العشق، لا يعرفون الكتابة.. يعرفون فقط كيف يصنعون الحب بأمزجة خدرها الشم والحشيش وحقن الماكس، الحب لديهم امرأة تخلع ثوبها.. يرتحلون عبرها للحصول على اللذة، انتهاك البدن، انسكاب

الشبق فيه، وحين يستفيق، يذهب تاركا لك عيون الغضب، كأنك سلبت منه بعض قواه، وأنا أعشق فيك هذا المكان.. رنة صوتك المتعالى يوقظ منى غفوة الاستغراق بأحيان تسليم نفسى لمجاهل كتبى..

دائما كنت أرقب جسدك المتبختر يتهادى فى الشارع، تلملمين أبدان صغارك ليلا، وكنت ألحظ، نهارا شقوق الكعبين، فأشعر بالغضب اذ كنت تنتمين لهذا المكان الموبوء، نحيت هذه الأوراق جانبا...

وانتظرت بشوق عارم أن تأتى لقوقعتى، سوف تأتى، قالت لى ذلك، تقص على بعضا مما تعرفه.. هل يمكنها الصعود إلى .؟ توجست، وبقيت معلقا بين التوقع والاضطراب، متمنيا أن تأتى، وألا تأتى ، فقد بدأ الشك يتسرب إليهم، ينمو فيهم، جلست، حين تأتى ستمحو بتواجدها رغبة سماع أى شىء .. سأفعل ما لم أفعله منذ هجرت بيتى البعيد..

أكانوا يعلمون بأننى انتظرها.؟ أشعر بأنهم حولى، يمتلكون خلجات قلبى، أرتجف.. كانوا يرونها فى حدقتى عينى، بجسدها المتوقد، عارية.. تخيلتها، وهم يدخلون دماغى فى تسلل، يفتشون عنها.. لو فعلوا، لوجدوها تحتل تلافيفى.. سوف تأتى حالا، ويأتون، يضبطوننى متلبسا بها.. مدمنا إياها لحد الألم، سوف تأتى وقد مددت أقفيتهم على الأرض ومشت عليها قادمة إلى.

على الرغم منى سوف يصفعون على تلك الأقفية..

صنعت لنفسى القلقة كوبا من الشاى، وشعرت بأننى غريب قد جئت لأكشف لهم عن مدى الاهانة والغفلة القائمين بها.

كانوا يقبعون فى الأمكنة التى يمكن لأفكارى أن ترحل إليها، هم هنا فى السطح، فى الكراكيب، على الرفوف، الكتب، الريح، مكبلون بالغضب، الشراسة، وشعور الحقد الفظ بأنهم مختومون على تلك الأقفية الممتدة على الأسفلت.. يقتحمون غرفتى.. مثلت قبالتى بجسدها البض.. يجيئون.. تخلع ثوبها.. تتدغدغ بجسدى.. اندهش.. لماذا خلعت ثوبها؟ لم أطلب منها ذلك!، كانوا يتوارون، يتناثرون كأنهم يرقبوننى عن قرب أو عن بعد .. أحتضنها.. انتظرت أن تبرح مكانها وتغيب بعيدا.. أدنو منها، وكانوا يحيطون بى.. أحيطها بذراعى وأقبلها وهى واقفة قبالتى بلا حراك.. تبسموا يسخرون منى.. كأنها ماجاءت إلا لنصب شراكها حولى، ثم الايقاع بى وتسليمى لهم معترفا بأننى خائن..

اعترانى خوف شديد.. ثم أحسست بأنها تساعدنى وتخفف عنى شعور الخوف، وتضغط على جسدى، فأنضغط، ويتلاشون رويدا، رويدا، يصيرون خيالات.. المغفلون، المنحطون، لم يكونوا يعلمون بأننى أعشقها حتى النخاع.. مرة أخرى جاءوا.. كانت معى.. تكاد تحتوينى، تنضو ثوبها.. قطعة بعد قطعة.. امتلكتها

وهم وقوف .. أتحداهم.. بهذا الجسد.. وكانوا يدخلون رأسى، بقوة رهيبة..

تساقط كوب الشاى منى، فصحوت من غفوة..

* * *

كنت كالجندى الأعزل، لا يمتلك سلاحاً، لمواجهة عدوه المتربص، الرابض.. كانوا فى تجاويف رأسى قائمين، كالثعابين، فى الزوايا والشقوق، لا أملك حيالهم دفعا..

لكننى أنسل.. أقعد مع المعمرين، كاتمى الأسرار.. المتواجدين دوما، فى الربع الكائن بين الكشك والنافذة.. قاعدون وكأنهم محبوسون فى هذا المربع المحدود، لا يستطيعون الفرار منه.

كانوا يقولون لى هامسين بأن ما سوف يكشفون عنه، هو سرهم القابع فى الذاكرة المجهدة. سر ناءت به أرواحهم والقلوب، وكان لابد لى، والأمر على هذه الخطورة، أن أفرغ لهم نفسى والذاكرة، أن أستعد لتلقى سرهم ذاك.. فأصغيت .. أصغيت...

(٣)

الحكـــايـــات

كـان الفـولى مـرشـداً.. كـان رفـيـقـاً لسـعـد زغلول، وعلى شـعراوى.. عبد العزيز فـهمى.. صدق أو لا تصدق.. كـان هو رابعهم، هل تصدق.؟ رابع الثلاثة الذين خططوا لثورة ١٩، حين ذهبـوا لمقابلة وينجـيت ممثل الاحـتلال البريطانى فى مـصـر، ليطالبوا بالاستقلال، كان رابعهم.. ويقول المخبرون السريون لقصر المعتمد .. أن الفولى انتظر على باب المعتمد، حين دخلوا، وقف حارسا، أو قل كاتما لسرهم... كان يتوقع أن يقبض عليهم ويودعهم السجن، حيث يتحتم عليه ، حينئذ، أن يرمح إلى بقية الأصدقاء ناقلا الخبر، ومن ثم ، ينطلق لذويهم ويزف الخبر.. فهو – كما يعتقد فى نفسه – أنه الرفيق الأمثل لتغطية هذه المواقف التى تتطلب الكيـاسـة والسـرعة وصب كلمـات الصـبـر المزوق بعبارات النزاهة والتأنق.. أتصدق.. ؟

عبارات لم تكن تخلو من سمـات الشمـاتة والبـغض ، وأن المقـبـوض عليـهم – الأصدقـاء الثـلاثة – يلعـبـون فى الوقت الضـائع.. يصطادون فى الماء العكر، مـاء آسن لن يروق أبداً..

فلم لا يعيشون مثلى، مثل كل الناس.؟ من هم حتى يركبوا رؤوسهم الريفية الواهنة، ويطلبوا مقابلة المعتمد البريطانى بكل جبروته وسلطانه.؟ أليسوا بأغبياء.؟ إن الملك فؤاد «نفسه» يتخذ من المعتمد متكئا يستند عليه، يتخذه جدارا منيعا لصد الغضب المتنفض أحيانا من جانب الشعب، المجهد، لما يراه من فسق ومجون.

لكن الحظ لم يكن بجانب الفولى، لم يدعه يفرح بما يدور برأسه الماكر، فقد خرج الثلاثة من مكتب المعتمد بوجوه صارمة، متحدية.. أيقن الفولى بأن المعتمد قد سخر منهم وطردهم، لكنهم بدأوا أكثر قوة مما كانوا عليه حين دخلوا .. كان رابعهم..

سار خلفهم منساقا بخيبة الأمل.. لم يكونوا يدركون بذلك الشيطان الدائر برأسه المطأطىء فوق ظلالهم الممتدة على الأرض.. عجيبة تلك الحكايات .. أتصدق..؟

كان منتهى أمله أن يشاهد المعتمد عن قرب.. أن يلمس يده.. أهو انسان مثله .؟ انسان له قلب يدق مثل كل الناس.؟

مثله هو الفلاح القادم من أغوار قرية شربين يطلب العلم - رغما عنه - بمدرسة الأزهر.؟ ينشد العلم من الدين، يأمل فى الرقى، ليصبح أفنديا مثل شبان مدرسة الحقوق التى أخرجت لمصر سعدا ليلقى الرعب بقلب المعتمد.؟ .. تصدق .. أن مطالب

سعد خيالية ومدهشة.؟ أتصدق..؟ أيمكن للمعتمد المحصن قصره بالانجليز والبنادق والعيون، أن يقابل فلاحا ضئيلا يلبس البنطلون والقميص والطربوش، واسمه الفولى ، حتى اسمه مخجل.. لكن الفولى كان يفكر ..

ألا يعلم المعتمد بأن شكل الفولى مغاير تماما لمضمونه.؟ ليس بالشكل يؤخذ الرجل، بل بالقلب والأفعال يؤخذ.. أعطنى قلبا محصنا وارمنى فى النار، سأنجو وأعود.

ألم ير المعتمد المحصن بكل أنواع الخمر وألوان النساء القادمات من كل بلاد الدنيا، سواقط الملك ورجال قصره المتأنقين، وأعين بعض أبناء البلد الساقطين.. أن الفولى يرتدى، ما يزال - البنطلون من الصوف الانجليزى، والقميص من القطن المصرى لكن التفصيل انجليزى، وأن رأسه مقصوص على الطريقة الانجليزية، وأن «بنايوتى» حلاق العسكر الإنجليز بالجمرك هو حلاقه المفضل؟ وإن لم يكن يلبس من منتجات بلد المعتمد البعيدة، سيظل «بلبوصا» وإن يستعمل «لمبةالغاز» الانجليزية سينام فى عتمة البلد، ولن يراجع دروسه غير المجدية أمام رأسه المعاند لاستقبال ماهو أبعد من مرماه المنشود.. هذا هو الفولى.. تصدق.؟

كان المعتمد يبث رجاله المتأنقين فى أركان البلاد.. يلتقطون الأخبار، وراء كل رجل متأنق رجل يراقبه.. والمعتمد يمنح أولئك

وهؤلاء الهدايا، الهدايا أنواع، يمنح الأرض لمن يأتى بالخبر اليقين عن فدائى مخبوء أو محرض لعين أو متحدث سليط اللسان، ويمنح لمن يأتيه بأخبار المدارس، فيما يتحدث الطلبة.. هل يجتمعون فى المساء، فى النهار، وأين أمكنة اجتماعاتهم.. أما المقربون جدا، أصحاب الحظوة، فهم الذين يأخذون أراضى زراعية،حزب الوفد الجديد، رجال أنذرهم المدعو واطسون يوما، وألقى عليهم تهديد المعتمد، العقاب الشديد لكل من يفكر، أو تسول له نفسه ويتحدث فى مسألة الاستقلال، ونمت أحلام الفولى. مع ذلك .. أتصدق.؟ حتى كان يوم الطامة.. يوم فوجىء الفولى بخبر نفى سعد إلى مالطة.

لم يدهش ، أو يشعر بما كان يشعر به يوم كانوا ثلاثة.. لن يذهب مسرعا ليكون أول الذين يزفون الخبر، فالبلد كلها كانت تعلم بأن سعدا ألقى فى الجمعية التشريعية خطبته المعارضة للاحتلال والملك.. ذهب سعد، وثار الشعب، وخمد وميض الأمل لدى الفولى.. تكاثر الفدائيون.. اعتلى الرجال مواقع العدو.. تكاتفت النساء.. خرجت المدارس وحطمت شوارع ومنازل وسدود، وأضرمت النار فى حوانيت الانجليز.. وأطلق الرصاص، ليخترق أبدان الناس.. أتصدق..؟

انبثت عيون المعتمد فى كل مكان .. تبحث .. تغوص فى البلاد البعيدة.. وكان المعتمد يرحب بكل بصاص جديد يأتيه

بخبر مفيد .. الشعب يطالب بسقوط الملك، والمعتمد يحمى مصالح أوروبا، والملك يعطى للشعب ظهره، ظهره كان المعتمد.. أقوى، الفولى القادم من شربين وحيد، شاذ، لا شىء هناك يفعله.. أمله المنكوب، مازال منكوبا.. عيون المعتمد تبحث عن عيون «مرشدين».. أهله المعدمون بقرية شربين يسلبهم أذناب المعتمد – المصريون – أقواتهم، الأذناب يزرعونها ويأتون بالقطن، الجاموس، القمح، ليصدره المعتمد إلى بلاده.. هؤلاء ممتلئون جدا بقوى المعتمد وسلطانه، تراهم زبانية النهارات والليالى، يقتحمون، أحيانا، أسواق الجمعة ، والاحد، والثلاثاء.. فلاحون آتون، ساعون للرزق من بلادهم، يحملون كد السنين والانتظار، بائعو العرق والصبر.. كانوا يقولون، لا بيع بالأسواق إلا بموافقة محمد سعيد بك، الأفاق الذى وقع معاهدة الاحتلال.. لقد منع البيع والشراء لكى يشعر الفلاح بالجوع وليعد بما جاء به من قطن أو خيل أو خضر أو طيور .. ثم يعود الفلاح مرة أخرى ليبيع بضاعته بالثمن الذى يحدده رجال محمد سعيد ، وعيون المعتمد ، وليسدوا بطونهم والعيال، ولله أمر الممتنع، لله أمر الرافض، فيلقى بأرضه ناراً، أو بيته حطاما، أو مطلوبا ولده للجندية، أو مفعولا بامرأته الفحشاء، أو مسلوبة ابنته البكر، أو مأخوذا هو ليشنق بتهمة مواجهة السلطات..

آه.. أتصدق..؟ .. هذا هو الفولى..

لكن كيف يتسنى الوقت ويخضع المعتمد لفكر الفولى، وسعد وصديقاه لم ينجحوا فى المقابلة.؟

كان على أن أصدق أو لا أصدق، بل أصدق، فكل شىء قابل للتصديق مادامت الدهشة.. قالوا ..

لقد شد المعتمد على الناس أوتاره، وأصبح من الخيال مقابلته، لكن اليأس لم يصب الفولى.. ظل مصاحبا للثلاثة.. مع أنهم كانوا ثلاثة، لا رابع لهم، سوى رجال يثيرون، يتملكون الأرض، الهوجة تتكاثف.. الفولى مصرى، المعتمد البريطانى.. التمرد يزيد، الموت يحصد، المعتمد غريب، الغاضبون فى الشوارع، الغاضبون والعاصون فى الأزقة.. فورة الشعب الناهض من غفوته يجب أن تخمد، القلاقل تتكاثر.. لا ثورة هناك، لا ثورة..

كانت الكلمات تتدفق من الصدور بشكل غاضب ومنفعل، وكنت أتلقى بأذنين متوقدتين، قالوا :

فى الليل المعلن بحظر التجول، تسلل الفولى، من مدرسته المحاصرة، طعن انجليزيا بسكين واستولى على سلاحه وخبأه..

حين أحس المعتمد بعملية الاغتيالات الجديدة، بحث بدأب وذعر عن ذلك الفدائي الجديد، كل فدائى جديد،.. شعر الفولى بالزهو.. أخذته العزة.. لكن ذلك لن يمنحه مالا، أو أرضا.. لزم

الصمت.. كل شيء كان يموت بموت الأيام.. أيام حملت في لياليها والنهار أعداداً أخرى من قتلى الأجانب.. فأعلن المعتمد لعيونه بأن كل من يجيء بفدائي له جائزة.. تصدق.؟ .. آه.. تصدق..؟

بدأت أذناب الشعب - العيون - ينقبون، في المقاهي، الملاهي، الخمارات، والبيوت...

كانوا يتنهدون، يهزون رؤوس التعب أسفا، يتحللون من وطأة الأسر، الحكايات المخبوءة..

وأول الذين أرشدوا عن مخابيء الفدائيين كان الفولي.. تصدق..؟ أخفى البندقية التي قتل صاحبها بسطح بيته الذي كان يقطن منه حجرة ضمن حجرات أخرى متجاورة لطلاب آخرين.. أفادت تقاريره العشوائية بأن الفاعل هو أحد سكان السطح، تصدق. له الله.

وحين طلبوا منه أن يرشدهم عنه، قال، إنه لو فعل ذلك، سيعرف أهل الشارع بأنه عين للمعتمد، وحين سألوه عن شكله، قال، إنه شاب، نحيل الجسم، طويل القامة، له شارب مشذب، له شعر مجعد، يلبس الطربوش، ويلبس قفطانا أبيض وفوقه جاكت رمادي، كتوم يسر بأسرار المعتمد..

وعندما ذهبوا، تناولوا كل قاطني السطح، والسطوح

المجاورة، وكل من تنطبق عليه المواصفات سالفة الذكر.. ولم يخطر ببال الأغبياء بأن تلك الأوصاف تنطبق عليه هو أيضا.. لكنهم أعجبوا بشجاعته وانتمائه، وتفانيه فى خدمة المعتمد، فأصبح عينا، ثم منحوه الجائزة، أرضا بلا زرع، بها، فقط، بعض النخيل، تلك الأرض الشاسعة، الخاوية المهملة بطرف المدينة.. هذه الأرض التى نعيش عليها الآن..

ومضى بذهنى اسم على الانجليزى، وقلت:

- اذن، على هو..؟

قاطعنى عم منعم:

- هذا اسمه على الفولى الانجليزى.

قال الحاج السباعى:

- هو ابن الفولى ويطلقون عليه - الانجليز - الفول الانجليزى، كما أطلقوا على أخيه الهلباوى.. الهلب الانجليزى.. أخذت بالك..؟

قالوا للفولى الأرض لك، وعليك أن تحرس نخلاتها، ففى النخيل يختبىء الفدائى والقاتل والمخرب، وإن وجد بها أحدهم ستكون أنت المسئول، فليس بالأرض سواك، وسواك لن يحرسها أحد.. تصدق..؟ لذلك تدرب الفولى على صعود النخل، قصف

سعفها لتبدو عارية، ثم ابتنى لنفسه كوخا بالسعف.. تربع فى كوخه المتوحد، متطرفا بحافة الأرض، وعند سكة الأسفلت.. يأكل مما يسقط النخيل من بلح، أو يعترض المارين على الطريق، يسطو على كل العربات المارة ، انجليزاً كانوا أو مصريين.. كان ذلك يحدث بالليل، بعد أن يخفى وجهه بالكوفية، شاهرا فى الوجوه سكينه، يأخذ نقودهم والطعام وجراكين الوقود ليفرغها على الأرض، ثم يعبئها - بينه وبين نفسه - بعصير البلح المزود بالسبرتو، كان يفعل ذلك شتاء، يخزنه ليخرجه فى الصيف، ثم يبيعه فى كشكه المقام حديثا على الطريق والملحق بكوخ نومه، ليأوى إليه طلاب الراحة والدوخة والدفء فى مقابل بعض القروش..

ظل الفولى وحيدا بهذه المنطقة.. صارت موطنه، يأتى رواده ويذهبون، يؤنسون أزمنة الفراغ لديه، ذلك الفراغ المستبد، الموحش، الذى يلهو بمشاعر الجسد حين يذهبون.. أتصدق.؟ ولقد علم من أحد الوافدين بأن سعداً قد عاد من منفاه..

لكنه لم يظل طويلا هكذا، وحيدا.. فذات ليلة باردة.. دقت باب كوخه امرأة ريفية.. يقول بعض السائقين القدامى، إنها جاءت هاربة من الصعيد.. مطاردة من قبل أهلها على أثر حب آثم، ارتكاب الفاحشة مع أحد الشبان ببلدها أسيوط، وأنها قتلت ذلك الشاب بعد تخليه عنها.. فى تلك الليلة البعيدة، أصابت الفولى

فرحة عرقلت لسانه المندهش، فتح لها الباب وأدخلها.. أعد لها طعاما، ولم يسألها عن شيء.. أنامها، ولم ينم هو، تصدق..؟ تخيل جسد امرأة يأتيك لوحده فى الليل والوحدة الموحشة.. امرأة، صدر، رأس، لحم نحاسى اللون.. ليل بارد، فراغ، ارتقاها.. أفرغ فى بدنها كل متاعب السنين والأشواق والشبق المحبوس.. امتلكت منه القلب، الوجدان.. النفس، واعتلت كتفيه - لم تفارقه ليله أو نهاره، فاتخذها زوجة..

وتذهب الشمس وتعود.. والوافدون على الكشك يتكاثرون.. تتناثر الأقوال بانتقال الرجال، سائقى اللوريات وعربات الجيب.. على الطريق ملاذ جميل، هادىء ملاذ للمتعبين.. بناه رجل اسمه الفولى.. يتحدث السائحون، أولاد الزبانية القائمون ابدا بالبلد، عن مكان جديد، به من الطعام البسيط والمشروب الروحى ما هو أفضل وأرخص..

والرجال المتخمون، المتوارون وراء الصمت والحركات المريبة، الذين يأتون بالمخدرات من واحات البدو، يقولون.. بأن على الطريق مكانا جيدا.. يصلح للتلاقى، يتحدثون فى أمور تصريف البضاعة.. ويمكن استخدامه فى التورية والتمويه، واخفاء الحشيش بمعرفة الفولى..

.. هيا يارجال..

تفرقت صيحات عبر الليل المغتال.. تتثاقل رؤوس المعمرين كلما أوغل الليل والأصوات المتقاربة فى الأعماق، أعماق ليلهم العجوز، العاشرة صيفا .. الثامنة شتاء.

كانت عيونهم الكابية تخبو فيها رغبة المواصلة.

فى تعب ينهضون.

هيا يارجال.. يمضون.. يخلون الأرض. الشوارع، فالليل يملكه الأقطاب.. الصبيان.. أتوارى.. تدنو الأصوات..

الليل غاب..

الليل غاب، يسكنه الصمت والدخان.. الليل خاو.. يتوق لحشرجة الأنفاس، لصوت القرقرة فى القوارير، لارتعاشات الماء فى القيعان، لضحكات الرؤوس المنتشية لشبان انتهكوا الصمت الناعس بأرض الحقل، بأمر أحد الأقطاب، تناوبوا، تحت جذوع النخل، حقن مواد الماكس فى الأوردة، وجاءوا ..

هيا يارجال، نوقظ موات الأرض فى ليلنا، نبعث فيه الدفء باشعال المواقد، نؤنس العتمة الغاشمة بانفجارات الصدور المعبأة بعيون النهار، هيا نعد لليل المعسل، كيزان الحجارة، نكرس الحشيش، كالرغيف سارق الرؤوس. ندافع عن وجودنا من ضابط القسم الأحمق.. هيا فليس على الأحمق حرج ولا على الحكومة حرج، فهو مستجد على هذه الأرض لم يأخذ عبرة من

الذى قبله.. لقد مضى، وبوجهه الجميل ندبة مطواة.. ونحن على الأرض نقيم..

هذا الأحمق يود الارتقاء، الترقية، لا يود الارتقاء المالى، العربة والعمارة، يود الترقية على أقفيتنا المغطاة بأعين نسائنا الواقفات بدهاليز البيوت والشرفات، ورؤوس الحارات، يراقبن كل الداخلين بعد انسحاب النهار، يضحكن بأصواتهن الطموحة كاشارات لنا، لنعتدل ونكتم الأنفاس فى البطون، وخلف الجماجم.. أحمق هو .. لماذا نبنى الأبدان ونزود الأعصاب بالقوى؟ لمنح النساء الرعاية على الأسرة.. هيا..

تعمدت الوقوف بمدخل بيت قديم.. ودخانهم المتعالى يذوب فى ظلمات الليل الموشك على الرحيل..

حين انتهوا، بدأوا يتمايلون، يلملمون المواقد والجوزات.. يتفرق البعض بعيدا .. واعتقدت أن ليلهم المملوك، قد انتهى، فتحركت تاركا المدخل، إلا أننى وجدت على الانجليزى، وآخر ضخم الجثة، يتسللان نحو بيت «دودى» المقفل، يفتحان بابه ويدخلان..

توجست .. انتابنى قلق شديد.. إن الحاج السباعى يقطن الدور الأول، توقعت صعودهما إليه.. سوف يقتلانه أولا.. نعم.. ثم يقتلان عم منعم، هذا أكيد.. فارتعشت خوفا وتوجهت -



بأعضاء مرهوبة - نحو بيتى، كان شىء بداخلى ينقبض، كأن أحداً يضغط على مصارينى.. توقعتهم قادمين إلى.. يلوى مشاعر رغبة السماع الملحة لدى على التوقف، كانت كلمات المعمرين، الآن، تطن فى رأسى كأنهم يشحنون دماغى بمزيد من المعلومات الخطرة التى لا يعرفها أحد سواهم.

كانوا يسكبون الكلام مقربين أفواههم الوعائية من أذنى رأسى الثابت، المندهش، كمن يخاف بعثرة الكلام، الحكايات حول نطاق رأسى.. يتحدثون وكأنهم يتخلصون من عبء أثقل منهم الكواهل والقلوب الغائر بها الزمن المجهد، الأمانة يحملها الشباب، أبت الجبال والأنهار والكهولة، لم أهتم حينئذ بخطورة التفاصيل ولم أكن اتوقع معرفة الكثير عن تاريخ المنطقة، فقط.. صدقونى.. تقت إلى الالمام الاستطلاعى عن كيفية استبقائهم كل تلك السنين على هذه الأرض..

تتبدل الحكومات، الثورات، وهم كما هم، قائمون، فقط أردت العلم لأكون لنفسى - سراً - فكرة أستطيع بها أن أقيم موازنة بين ارتقائهم الذى لا يحده حد، فهم يملكون من الأموال، والقوى ما يجعلنى أشعر بتفاهة من هم دونهم، فضلا عن أبدانهم الضخمة كالحة اللون، كأنهم جذوع النخل بحق، وبين نفسى، موضعى البسيط بساطة الورقة التى أكتب عليها، بامكان الريح أن تلهو بها، والجو أن يبليها، نقطة ماء تمزقها، أنا البسيط

تحت زمنى المقهور..

يجب أن أكف .. أتوقف.. أرحم نفسى مما تعانيه، ومما يمكن أن تلاقيه، تماما مثلما يحدث للحاج السباعى وعم منعم، وعم مرعى، هل لقوا حتفهم الآن.؟..

* * *

فى الصباح انتظرت موت المعمرين.. سماع خبر عنهم.. لكن الحى كعادته المألوفة..قصار البيوت تلفظ أطفالها الحفاة. باعة الخضر يتجولون، ينادون بأصوات مخنوقة.. كنت أدنو على حذر من بيت دودى علنى اتسمع شيئا يحقق توقعاتى.. شباكها لا يزال موصدا. كشك عم مرعى مقفل وساكن.. السرادق لا يزال منصوبا.. خمنت كأنهم تركوه هكذا ليشيعوا منه جثمان المقتول.. لكن خابت توقعاتى حين وجدت عم مرعى يغادر باب بيته، وهو يتمتم ويساقط حبات مسبحته. قلت فى بالى، ربما قتلوا الحاج السباعى ولم يكشفوا عن جثته بعد.. توجست وانتظرت.. الوقت ثقيل، ذلك الذي سوف يكشف عن المخبوء.

كان الشباك يدفع من الداخل ليظهر وجه دودى مشعث الشعر، انتزعت سؤالى متخوفا..

- كيف حال الحاج؟

قالت بصوت ناعس:

- صلى الفجر.. ونام.

ابتعلت ريقى والصوت.. استدرت لأعود.. اصطدمت بوجه «باط» وقف أمامى وكأنه كان يراقبنى متعمداً.. مضيت فى صمت، وقد تملكنى تساؤل غريب، لماذا إذن صعد على الانجليزى والآخر إلى بيت الحاج السباعى ليلة أمس.؟

داهمنى شعور الخطر.. عدت مسرعا وصعدت إلى شقة الحاج السباعى.. كان نائما. أيقظته امرأته العجوز..

- سباعى .. ياسباعى..

اندهش لرؤيتى صباحا.. قال.. وقد جلس..

- عندك اجازة.؟

- تعبان قليلا..

- إشرب معى الشاى..

ثم جاء عم منعم مهرولا، احتضن الحاج وجلس فى قلق..

* * *

حين هاجم الألمان الانجليز فى مصر، ضحك الناس فى الشوارع وقالوا متهكمين.. الألمان الشجعان يحاربون من أجل بقائنا تحت التراب، هتلر يحارب المعتمد البريطانى فى سبيل عيوننا السوداء، وأرضنا الخضراء ونيلنا اللذيذ، من أجل عيون

الملك.. يحارب.. حينئذ تهدمت شوارع. وبيوت ودكاكين، كل ماهو ناتىء على أرض مصر تهدم.. ضربوا يومها الشمس وحجبوها، أرسلوا الطوربيدات لضرب المصريين الذين استفادوا من وجود الانجلين، كأنهم يلقنوهم درسا فى الأخلاق والفضيلة، لايفعلون مع الألمان - مع الأسف - مافعلوه مع الانجليز - بعد أن يهزم الانجليز - ويجيئون لأخذ مكانهم من احتلال مصر، وليعلنوا، أن الانجليز ضحكوا عليكم ومنحوا اليهود أرضا لم تكن لهم، ونحن أحرقناهم لأجلكم.. وسوف نطردهم لكم من فوق الأرض..

يومها اختبأت «زمردة» امرأة الفولى، فى البوص المزروع بأرضها، وصعد الفولى فوق النخلة، بعد أن دفع بكل ولد من عياله، أن يصعد نخلة، لكن العيال أبوا الصعود، وطلبوا أن يظلوا تحت النخل ليروا أباهم وهو يقذف لهم بالبلح الأخضر، وليشهدوا القصف والدخان المتصاعد من ناحية عامود السوارى وباب سدره..

وحين توقف الضرب قليلا.. لم يفكر الفولى أو زمردة فى الهجرة مثل كل الناس. بل هبط الفولى من فوق النخلة، وبدأ ينقش بقطعة شظية، على كل نخلة أسماء من أسماء عياله.. على النخلة الأولى والتى تلاصق الكوخ المتجدد. كتب اسم ابنه الأول.

(الهلباوى سيد الفولى).

وعلى النخلة الثانية والتى بوسط الأرض، كتب. ابنه الثانى.

(على سيد الفولى).

أما النخلة التى بطرف الأرض فقد كتب عليها اسم ابنه الثالث.

(غباشى سيد الفولى).

وذيل كل اسم باسم الشهرة.

الهلباوى كلبير.. على الانجليزى.. غباشى لينى..

وعندما سأله العيال عن المعانى المقصودة من هذه الأسماء تبسم وهز رأسه الكبير المخلوط شعره بالأبيض والأسود، قال:

– عندما تكبرون، سوف تعرفون كم كان يتمتع هؤلاء الرجال بالشجاعة والإقدام..

رشف الحاج السباعى من كوب الشاى رشفات بطيئة.. وداخلنى شعور بأننى أغوص فيما لا يعنينى.. مالى ومال هؤلاء القوم الجبارين.؟

فلأعد لغرفتى، وأغلق على بابى، وأكفى على الخبر المفصل والتاريخ المتأصل فى الوحل غطاء رأسى المنصهر بالدهشة..

لكن شيئا قويا، خفيا، كان يشدنى لمواصلة السماع، فقد أصروا على تفريغ مابدأوه حتى النهاية، حتى لا يكون بالصدور

مايدعو للقص مرة أخرى، فربما يهربون.. أو ينفون أنهم قصوا على إحدى الحكايات..

قصفت مخازن كوبرى الناموس، اشتعلت النار فى الأطعمة والمهمات، اعتقد الناس بأن الألمان يقصدون بذلك تجويع... تنهد الحاج السباعى، وتابع قوله.. الانجليز بتلك المنطقة، لكن المقصود كان تجويع المصريين، فالألمان يعلمون جيدا أن الانجليز ينهلون من خيرات مصر، حتما سوف يرسلون أذنابهم إلى القرى والنجوع والكفور، تصدق..؟

هذا هو ما حدث، فأول الذين جاءوا كان الفولى.. فكرت زمردة فى بيع ما تملك من ذهب.. لكن الذهب انهار سعره، امتنع الصاغة عن الشراء.. لم يكن الفولى ضمن الحالمين بأيام الفرج، ترك امرأته ونزح مع الراحلين إلى مناطق العامرية والحمام، وبرج العرب.. يقولون إن بعض المصريين يتحايلون على المعيشة بطرق جهنمية.. كان بعضهم يسطو على قطار الجرحى العائد من مرسى مطروح إلى الاسكندرية، بالاتفاق مع «المحولجى» بكشك التحويلة الرابض بسكة العامرية، ليبطىء من تقدم القطار، ليصعد الرجال، ينهبون ماتصل إليه أيديهم من طعام، ساعات، خواتم، نقود، أدوية.. ويهبطون..

كانت حملاتهم تزداد يوما بعد يوم.. ولم يتوقف عملهم عند هذا الحد، بل تحول نشاطهم - بفكرة الفولى - إلى ضرورة

البقاء في القطار الذي يتابع سيره عن طريق محرم بك، أبي قير، فكتوريا، مروراً بباكوس.. كانت زمردة قد بدأت في مزاولة عملها الجديد.

حملت القفة، وبعض القواقع.. نزلت المدينة بأمل بعيد في جمع بعض النقود.. دار بدنها الطويل، تضرب الودع، تقرأ الكف، تقول كلاما غريبا، لم تكن تفهمه، لكن من يتلقونه يدركون بأنها تعرف الغيب والمخبوء، والمكتوب فيه..

أما صغارهما، فقد شقوا طريقهم المبكر، بدأوا في جمع أعقاب السجائر.. ذات يوم.. انكشف أمر الفولي، بباب سدرة.. هوجم وهو يبيع ملابس الجنود الجرحى والموتى لأحد الانجليز.. وعندم سألوه قال، إنه يعيد مال الانجليز للانجليز.. تصدق..؟ وأنه كان يراقب مصريا حاول سرقة جثة أحد الجنود الموتى ليبيعها لأحد طلبة الطب الذين كانوا يتوقون بشكل جنوني لتشريح رأس انجليزي ليعرفوا، ويطلعوا على السر المروع والرائع والذكي، الموجود في دماغ الجندي الانجليزي..! تصدق..؟

يومها، منحوه النقود، والتشجيع والأمان.. ذاكراً للبوليس أنه تحت رعاية المعتمد وأنه خدام مخلص للسادة الانجليز الذين يحمون البلد من الألمان، وأن السارق.. تصدق..؟ هو المصري الخسيس العدمان، التعبان، العريان.

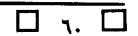
وحين انتهت الحرب.. عاد الفولى ليسكن الأرض مع امرأته التى تأتى ببعض النقود، وصغاره الذين يأتون ليلا، وقد باعوا أعقابهم.. واصلت زمردة عملها فى ضرب الودع، الضحك على الحمقى والتافهين، لم يمانع هو مادامت تأتى بالنقود..

بعد الحرب، نزح بعض الريفيين إلى الأرض هربا من قهر الانجليز فى القرى والنجوع.. توافدوا من البحيرة والصعيد..

أحس الفولى بأن هؤلاء ساقطون - برغبتهم - تحت سلطته الكاملة، أبقاهم بالأرض حول كوخه على أن يبتعدوا عن منطقة النخيل، فتناثروا حولها.. بنوا على الأرض أكواخا.. بنوها من مخلفات معسكرات الانجليز المحترقة بناحية كوبرى الناموس، أرض سيوف، شماعة، الرأس السوداء..

وكان لابد من عمل يأكلون منه، فالفولى ليس معتمدا، وليس وزيرا.. فالعهد قد تغير، وسعد قد مات، ونحن فى الأربعينات من الزمن الأسود، والعيال يكبرون، وينبغى أن يترك لهم شيئا.. فلتعملوا.. العمل شرف..

تدربت النسوة على يد زمردة.. كيف يحملن القفف.. استعمال السر فى القواقع، الحديث مع الزبائن عن الغيب والمكتوب، وسائل نشل الرجال فى المواصلات العامة. استعمال أجسادهن واحتكاك مؤخراتهن بأبدان الرجال أثناء الزحام..



وتهييج مشاعرهم، دون المساس - بالطبع- بالشرف النسائى..

وانطلقن فى المدينة..

أما الرجال، فقد تدربوا على شتى الوسائل لتحصيل النقود، بدأوا يتعلمون ركوب المواصلات والنشل وتصليح المفاتيح، حاملين صناديق صغيرة.. يلفون الشوارع، ينادون.. (نصلح مفاتيح.. نعمر..) وبدأت أرض الفولى تنبت بالزرع.. كان منهم - العجائز - يعملون فى الحرث.. حتى عادت على الفولى ببعض النقود..

وبدأت عملية التآلف والتآخى والونس تسود.. ومض بذهنى سؤال.. قلت مقاطعا.

- أكيد أنتما كنتما ضمن هؤلاء العجائز.؟

قال عم منعم:

- بل كنا شبانا، ولم نكن نحب السرقة، فعملنا فى عزق الأرض..

قال الحاج السباعى..

- كان الفولى انجليزيا، مصريا، سيئا.. المهم.. تصدق..؟ تطورت أسرة الفولى، والكشك أصبح مقهى يرتاده كل العابرين من الانجليز والأفارقة، واليهود، تصور.؟ اليهود أيضا يدخلون

مصر.؟ كان المصريون يأتون إلى المقهى لسرقة هؤلاء الرواد..

انتج رجال المفاتيح أطفالا.. أطفال ليالى البرد، والقسوة.. أطلقوا فى الشوارع، الولد سيف مفتاح، الولد السورى أبو حديدة، رامبوا، الولد فتحى العاطل.. عيال كثيرون ملأوا الحى بالخوف.. كانوا صبيانا تحت يد على والهلباوى وغباشى، الذين صاروا شبانا يشار إليهم بالحذر والخوف..

سألت عن غباشى ذلك الذى لم أره.. قالوا.. لقد اختفى ذات يوم، وعمل الفولى بالمقهى لم يدر عليه بالمكسب المنشود.. الأجانب لم يعودوا يأتون بكثرة.. يبدو، والله أعلم، أنهم خافوا وأصبحوا يدركون تلاعب المصريين بهم..

فكر الفولى فى الرحيل إلى برج العرب، وديان البدو.. هناك رجال أقوياء، أعراب، يتاجرون فى «الكوكايين» ويجلبون الحشيش..

فى البداية عمل الفولى حمالا، ثم موزعا - كان يفكر - ثم استعمل مقهاه كمخبأ، ثم ضرب البوليس حول البدو كمينا، فضبطوا متلبسين ببعض البودرة.. والحشيش.. الأعرابيون يبيعون مخدرات خيول الانجليز للجنود الانجليز.. ليس العسكر البيض بأحصنة، أو بهائم كى يتعاطوا هذه «البودرة».. إنهم يسرقونها من نوادى السباق، المصريون فقط هم الذين يتاجرون

فى أخلاق الانجليز، ونحن نخدم العسكر.تصدق..؟

يقول البعض، أن الفولى كان وراء عملية حصار البوليس، مما أكبره فى عيون المعتمد.. وقام الفولى - سراً.. بتجارة المخزون فى مقهاه، ولكى لايخرج الموضوع عن رأسه، جند زمردة لتقوم بتوزيع المخدرات فى قفة ضرب الودع..

وضعت كوبى.. بدا عم منعم متعبا.. اضطجع الحاج السباعى إلى مسند السرير.. تنصلى من هذه الحكايات ضرب من العبث، اللهو بالنار، فقد شحنت بما يكفى أن يفجر طاقة الصبر عندى.. لو لامسوا بدنى سوف أتحدث، أسكب ما بوعائى، لو شكوا عظام دماغى بدبوس سأفرغ ما فى جعبتى، أنشر على الملأ الحكايات المدهشة، أروى على الذين لا يعلمون حوادث الزمن البائد.. أشعر بأننى فاعل ذلك لو اشتد حولى الحصار.. لكننى تخوفت، فلن يتركونى لأفكر لحظة فى عملية بداية ارتباط لسانى بما يود أن ينطق به..

تضاءلت ملامح الحاج السباعى، كأنه ينزف مع الحكايات بعضا من دمه وأعصابه، وتصورت أنه لن يعتدل من ركنته، أو ينهض من مكانه أبداً..

(٤)

سـد خـانـة

فى المساء، تحول السرادق إلى حفل كبير.. ازدانت الشوارع بالبيارق والنجف، تراصت المقاعد والفرق الموسيقية.. تراقصت أبدان العيال، وضعت سماعات ضخمة على النواصى، وجهر صوت رج أركان المكان.. حى الفولى كله يرحب بعودة البحر، تعالت الأصوات، تعلن تقدم الزفة من أول شارع السلام، تجمعوا حول عربة حنطور كانت تحمل سد خانة، بين صفين من دراجات بخارية صخبت أصواتها.. كانوا يصرخون أعجابا..

(عاد البحر.. جاء البحر..).

وحاملوا الطبل يشاركون بايقاع رتيب.

(عاد البحر..).

كانوا يتقدمون، والصوت الجهورى يصيح..

أهلا بأشجع الرجال..

البحر، الظل المتباعد أبدا لحياة «دلال» الحائط المائل، البديل الدائم لمشاكل الهلباوى، الصدر الذى يتلقى كل الضربات التى

يمكن أن توجه للهلباوى من قبل الحكومة.. النائب الأوحد، حامل الإدانة، يعترف بأنه فاعل الأفاعيل، يحكم عليه، يدخل السجن، يقضى مدة العقوبة نظير مبلغ من المال يصرف عليه وعلى أهل بيته.. الآن وقد لفظه السجن، فعلى الرجال المختصين بمراسم الاستقبال أن يستقبلوه.. يحملوه من العربة ذات الأحصنة ويتقدمون به.. هذا هو البحر، الواقف دائما، متأهبا.. بفوهة المدفع، البحر، الوجه المألوف لدى السجناء والحراس، النسخة المكررة - كما يجب أن يقول بافتخار - للبك الهلباوى، بكل صولجانه.. البحر، الذى أمات قلبه على قضبان السكة الحديد، وارتضى أن يكون سفيرا نظير النقود، يمنحه الهلباوى شرف الاسم الذى يتعالى به على بقية أقرانه من الرجال.. الرجال هنا، والرجال فى السجن، أولئك الذين ينتظرون قدومه لينالوا منه الأطعمة المتسربة إليه و«الدخان» - سجائر ومخدرات - والحراس يرفعونه فوق مستوى السجين العادى..

تعمدت أن أبدوا لهم، على الرغم مما يعترينى من هواجس تضاربت، توقعت أن يطردونى.. وتوقعت أن يسلطوا على أحدهم.. كانوا يروننى.. ويبدو أن مظاهر الفرح جعلتهم يحجمون عن إيذائى، يتطلعون إلى فى صمت.. أبدو لهم، خاصة على الانجليزى، وجليسه الملتحى المتضخم، الساكت سكوت الواثق، وكأنه ينظم - برأسه الكبير - لتدمير العالم، يدمره

بعينين خاويتين، قابعتين وراء أجفان منبعجة، ها أنا.. جئت إليكم، أعرض عليكم نفسى، مسلما لكم رقبتى برضاى ورغبتى.. وكانوا ينهضون لاستقبال البحر من فوق أعناق الرجال، اتجه إليه على الانجليزى، وكان جليسه لايزال قاعدا، قال على:

- أخى الهلباوى، يشكرك.

قال البحر.. سد خانة، وسط الجميع.

- أنا فداء للبك الهلباوى، رقبتى سدادة.

تعرفت يومها على الهلباوى، الجليس الساكت، وعلى البحر، تساءلت فى استغراب.. لم لا يذهب البحر إلى بيته أولا.؟ لقد توقعت أن ينطلق إليهم بكل شوق الغائب.. كانت هى هناك، بالنافذة.. تشاهد الاحتفال بوجه لا مبال، كأنه غريب.

جالسا كان بوجهه المسود وسوالفه الطويلة دليل التدلل وراء القضبان، كنت اتطلع إلى وجه الهلباوى، بينما المحتفون يولوننى ظهور البغض، وقفت وحيداً أستشعر الخوف.. أكيد هم يحيكون لى المكائد.. لوقت آخر.. كانت هناك.. تمضغ لبانها..

وضع أحدهم كفه فوق كتفى.. التفت.. قال لى حسن رامبو:

- أتظل هكذا طويلا.؟

لم أرد.. فقال:

- تتفرج دائما من بعيد..

لم أجب.. لم يكن لدى سوى فكرة عرض نفسى، قلت وكنت انظر إلى سد خانة المنتفش كالديك..

- أتفرج على الهلباوى..

وخبط صدره بكف يده مندهشا . قال:

- أهو فرجة.؟

انقبضت، ولم أرد.. ثم اقترب فتحى ونظر إلى وجهى بتحدى الواثق من احتدام التوجس بداخلى.. أشار بعينه أن أدخل السرادق، ثم تطرفت حدقتاه نحو نافذة دلال التى امتعض وجهها، فاحترقت الحدقة، دفعنى إلى الداخل.. تقدمت، وذلك الإحساس بالخطر يلازمنى.. تقدمت على صمتى.. وفكرت بأن وراء دعوتهما لى أمراً آخر أكبر منهما، فهما ليسا إلا تابعان للأقطاب.. ربت رامبو على كتفى وقال:

- لماذا أنت خائف؟.. لن نفعل معك شيئا الآن..

أيقنت أنهم بدأوا يظنون بى خفية.. طالعنى وجه الهلباوى المتحجر .. متجهم. محفور به التجاعيد كقنوات خرسانية مكسوة بالشعر السلكى، المتلبد. رمقنى بجانب عينه.. وكنت أتجاوز مكانه مقبلا.. تهامس مع أخيه على.. حين جلست، فكرت فى

النهوض والقول بأننى لم أبلغ عنهم ولن أفعل.. وأننى لست تافها .. لكن عينى الهلباوى أقعدتانى، ورغبة القول.. رمقنى.. فتشاغلت بالتفكير فى أصدقائى كبار السن، المتوارين الآن، فأنا حتى الآن لم أتبين النية والمكيدة التى تحاك لى.. لم أفعل مايغضبهم أو يجعلهم يوجهون إلى هذا البغض الواضح، فقط، أراد المعمرون سكب الحكايات بوعائى المستوعب.. كانوا يقولون (أصبح للفولى اسم مقترن برؤوس الناس، يبعث على التوهج والسعادة..)

قالت له زمردة ذات يوم:

– مخزون الصنف بدأ يقل..

قال لها بصوت الواثق القوى:

– لا تخافى.. سوف نأتى بغيره.

امتدت أمام وجهى بوصة الجوزة، فانتفض وجهى، رأسى، كان الهلباوى يحدق فى بجانب عينه.. إننى لست تافها حتى أبلغ عنهم، أكيد هم يفكرون فى ذلك، فليفعلوا بى ما يرونه نافعا لهم.. إننى متأهب، الآن لمغادرة الحى، فلست مستعدا لمزيد من الاشكالات، يكفى أربعة أعوام بعيدا عن أطفالى..

على أن أتعهد لهم بأن ألزم الصمت.. فإننى مجرد بعوضة، ذبابة.. إن لم أكن انسانا بسيطا جدا مطحونا. لن ينفعهم

قتلى.. لكنهم لن يصدقوا، فعيونهم الملونة بدأت تجوب مكانى، بالتحدى، والوعيد، والسخرية، والدهشة. وقلت فى نفسى فلنر - والحيرة، والتساؤل، وشعور الخوف، فانكمشت، ثم ابتسمت غصبا. وقلت - أيضا - فى نفسى. حتما هم خائفون منى..

لامسوا طرف البوصة بجلد خدى.. قال رامبو:

- شد .. شد..

اعتذرت ولم أشد، فقال السورى:

- شد..

فاعتذرت مرة أخرى عن تخوف، فقال فتحى بنظرة المغتاظ:

- لابد وأن تشد.. نحن نحتفل اليوم برجوع، البحر..

لست راغبا فى فقدان تلك المنطقة الواعية من دماغى.. أحسست بأننى لن أستطيع مغادرة المدينة أبداً.. لقد وضع رجالهم المتاريس فى سكتى.. فرضوا على الأبواب حظر الخروج.. كنت أراهم فى كل مكان أتواجد به.. عين الانجليزى تبصرنى، عين الهلباوى.. لامناص من التحدى.. أشفط.. أشد.. أملأ صدرى بالدخان.. الدخان فى رأسى، فى جوفى.. يتسرب إلى شراييني.. الدخان يندفع من تحت منخارى كثيفا، أسحب.. أكتم أناسى.. يتوهج جلدى.. يتخدر رأسى.. تتعدد بذهنى

الوجوه، العيون.. أركز كل تفكيرى فى المنطقة الفاصلة بين الوعى واللاوعى، بؤرة انسحاق معاملاتى اليومية فلادرك -جيداً- بأنهم ينوون تخديرى.. إننى واع.. وإننى لو تحدثت، فلن يخرج حديثى عن المألوف، فلاكتم بقاع ذاكرتى كل ما يمكن أن يكشف عن تعلقى المجنون بدلال.. بأولئك القاعدين أمامى، وبالمعمرين.. أشد.. وهم يشدون..

(اتسعت تجارة الفولى والكشك، صار مأوى المتعبين من كل صنف ولون تتلاقى القلوب، الأبدان.. يشربون الخمر، الحشيش.. اكتسى ذراعا زمردة بالغوايش الذهب.. كانت جليسا محببا لمن يريد الصنف.. أدمنت الحديث الخليع والعرق، والسجائر الملفوفة) أشعر برغبة جامحة إلى الضحك.. هاهم يتخدرون، وأنا أفكر، والدنيا تدور.. تطلعوا إلى وكنت أضحك بالفعل.. وأدركت على الفور أننى لم أنبس بكلمة واحدة بعد.. وكنت قد توقفت عن الضحك.. كانت أعينهم تبدو كحبات الخوخ المعطب، المثقوب، وكانوا يطيلون إلى النظر، ويضحكون.. لم أكن مسطولا ليحدقوا فىّ.. هكذا.. أبتسم - لشكل رؤوسهم المرصوصة كثمرات البطيخ الملقاة فوق رصيف الشارع العمومى، تتدحرج، فأضحك.. يحاولون تبادل الكلام.. لكن.. أستحلب الجوزة بعد شعورى العميق بالانتشاء.. أنا منتشٍ، وهم يرقبون وجهى غير منتشين، خلت وجهى محقونا بالدم المتجمد، متخما، مليئا

بالدهن، ثقيلا، و«دلال» متعلقة بأطراف أجفاني.. ضحكت منهم.. قال فتحي وهو يضحك:

– يبدو انك فعلت معها الكثير..

نحيت «دودى» عن أجفاني، وفكرت بزمردة، وصوت الحاج السباعي يقول: (يوما ما صرخت زمردة في وجه الفولي، أن يبطل منح العيال.. الهلباوي. وعلي.. مشروب عرق البلح المعتق والبيرة. لكنه أبي. وكان يسقيهم ويعترض قائلا بأنهم رجال ويجب أن يطلعوا شجعانا، يواجهون مثلي الدنيا السوداء).

– ليلة أمك سوداء.

قالها علي الانجليزي، فانتبهت متوجسا.. كان حلقي مغلقا وقد تأكدت من ذلك عندما ناولني رامبو طرف البوصة ورفضتها.. ضحكت رغم ذلك. اغتاظ فتحي، وقال علي:

– أما أنت ياابن..... ياعبيط، كيف لم يؤثر فيك الحشيش..

أيقنت من أن فاهي لم يخطيء، فضحكت. وتماسكت، فما زالوا يحاولون تخديري، أطلت النظر إلى علي وفكرت في شتم أمه زمردة.. لكنني فكرت في المعمرين، (ليس هناك فرص متاحة لادخال الصغار المدارس، المدارس للانجليز والأغنياء ذوي الوظائف، نحن فقراء على الرغم مما نملك من مال، أصلنا على ظهر أيدينا، دعيهم يشربون البيرة، إنها تقوي القلب وتحرك

الرأس، وتساعد البول على الجريان.. فى البيرة فوائد جمة يازمردة..).

كان رأسى يهتز اعجابا، وضحكت.. جز الانجليزى على أسنانه. وقلت:

- لاتغضب.. حشيشكم مضروب.

اندهش على ولزم الصمت.. سحبت نفسا، فقال:

- أنت من.؟

- أنا الغلبان.

- من أية داهية جئت لنا.؟

- جئت من بطن أمى وصلب أبى.

وضحكت، زمجر رامبو، وقال:

- اعدل نفسك مع البيه ياحمار.

خالنى غير معجب بالبك.؟ هراء. كل بكواتنا يبعثون على الاعجاب، والدهشة:

قال رامبو وكأننى قلت مالم يرقه:

- البك هذا أفضل من أمك..

ضحكت، كان رامبو مسطولا لحد عدم التفرقة بين البك الذكر

وأمى الأنثى، خيل إلى أننى ضحكت. فلزمت الصمت.

بامكان رامبو أن يطعننى بمطواته الآن، قلت:

– أتحسب نفسك الوحيد الذى يحمل سكينا.؟

كان الليل يتسرب عبر المدينة، ينفض، وبعض المشاركين.. تركوا عن عمد.. الهلباوى والانجليزى.. بدا السرادق مهجوراً.. مقاعد متفرقة، موائد تحمل المواقد وبقايا من جمرات متقدة.. البحر مركون، نهض وانساب إلى الخارج كفأر دائخ.. تبعه رامبو. ثم سار «تحت أبط» نحو شارع. دلال. وكنت أتبعهم خارجا فى حين استوقفنى على ليقول لى:

– مع من تعمل ياولد.؟

لفحنى هواء الليل البارد. أدار رأسى.. أشياء حميمة قد نسيتها، ثقيلا كان رأسى.. أحسست بالتفاهة بالمقارنة مع نفسى منذ حين.. فكرت فى التقيؤ. إفراغ جوفى، لكن معذرة، فالمخدر بالدم.. مهمتى الآن هى التركيز الشديد..بيتى لايزال بعيداً، كلما رفعت ساقى تخلت عنى رغبة المشى، وخلت بيتى يبتعد. لن أشرب بعد الليلة، لن أتفوه باسم دلال.. أهذا هو بيتى؟ سلمه مستطيل.. الليل الأسود ينام فوقه، محشورا فيه. وأنا اترنح، يمينا وشمالا.. السطح المندى، الباب الموارب.. بابى موارب.! الليل يوشك على الرحيل. بل يرحل. شربت كوبا من

الماء والملح المذاب، رغبت فى النزول، فى الشارع، يروقنى. كنت أفكر وأنا أهبط السلم. الآن، فى الليل الراحل، الشارع شبه ميت، وأنا شبع واع. رجال الفراشة يفكون السرادق.. البحر على القارعة ساريا بكوب شاى، تعباً كان ، مسلوبا وعيه.. هواء الفجر المندى يزيد الرأس انتعاشا.. لماذا لم يدخل البحر بيته.؟ حتى الآن لم يدخل.؟!

وكان فتحى مقرفصا، وحيدا، منبوذا.. تحت نافذة دلال، إلى جوار كشك عم مرعى المغلق، كأنه ينتظر شيئا. ينتظر.؟ ما العلاقة بين بقاء البحر على الرصيف، وانكماش فتحى تحت النافذة.؟. لم أشعر بالبرد، تواريت، لأرى أيهما سيترك مكانه أولا.. ويذهب، هما بعيدان وأنا بعيد.. غمرتنى نشوة، «دودى» الآن تغط فى النوم، ولا ترغب فى أحدهما.. تبسمت لتلك الأفكار، واعتقدت بأن لتواجدى فى المكان معنى، لم لا.؟ هاهى «دو» المعشوقة لقلبى تمارس مكانتها القوية عليهما.. سررت لهذا وتناسيت كل شى، حتى بابى المفتوح بأعلى نسيته ونسيت الذى يمكن أن يكون قد واربه.. لكن بغتة، باغت شعور السرور لدى ضوء يترامى، يسقط.. ينبسط على الأرض من داخل المدخل حتى منتصف الرصيف.. هناك إذن باب فتح، ثم تلاشى الضوء بانغلاق الباب..

كان الهلباوى بطوله الفارع، قفطانه الأبيض، يغادر المدخل،

متسللا إلى شارع السلام.. ألجمت الدهشة لساني.. نهض فتحي وانصرف.. ثم لمحت البحر وهو يتناوم وكوبه الفارغ محطم إلى جانبه.. كنت أتحرك. ببطء نحو جسد البحر.. سألته، والحنق يفرى تلافيفى.

- الهلباوى كان بالداخل.

تأملنى مليا وقال:

- أعرف. كان يتبول بالداخل.

رفع جسده عن الأرض بصعوبة.. غادرنى، قلت:

- لماذا لا يتبول فى بيته.؟

التفت إلى، قائلا:

- لى الشرف بتبوله فى بيتى...

انقبضت مصارينى.. بعد سنوات أربع أشعر بحنين جارف، فائق، يشدنى إلى بيتى القديم، كنف طفلى، امرأتى، تلك التى تمتعت بقدر مذهل من الوفاء... أستشعر الآن الخطأ الفادح الذى قمت به يوم هجرت البيت.. دلال متردية فى العبث، الضياع، الخيانة..

أشعر الآن بأهمية تواجدى، هناك بجوار امرأة عشقتنى بحق.. امرأة باقية لاتزال منكبة بكل مشاعر الأمومة على

صغارى.. لم تروعنى يوما بطلب الطلاق، أو تدهشنى بضرورة اعادتها تجربة الزواج مع رجل آخر.. كان لابد لى الآن أن أعود، أصل ما قد انقطع، لكن كيف؟. كيف أعيد ما قد يكون تآكل، انطمس، من حب.؟ كيف وأنا بين فكى أسد؟.

أوعزت أفعال «دو» وأبيها لقهر الأقطاب.. لكن.. كل شىء أصبح متوقعا أو باعثا على الدهشة.. الليل المخنوق، المتسرب ببطء والفجر الآتى بكسله المكتئب، الصمت الرابض بأركان البيوت.. بيوت انتصبت على أرض مازالت رملية..

أحسست بأن أحدهم يتابعنى، يتعقب خطوى الثقيل.. يبدل أمر «دو» الذى روعنى بخوف يتولانى.

ولجت من شارع البسستان إلى شارع السلام.. كان طويلا ومتعرجا.. تتفرع منه أزقة ضيقة، مدفوس بزواياها سكان ضحلون، ارتضوا الحياة فى صمت، لا يقربون شارع السلام إلا قليلا، حين يسرحون أو يعودون.. فإن ارتاده أحدهم، فلابد أن يحاذر .. ليس بالشارع عفاريت أو خطافون أو سكارى.. لكن هناك شيئا مهابا يمس القلوب منهم ولا يدركونه، عليهم أن يتجنبوا النظر لبعض سكانه، لو كانوا بالنوافذ أو الشرفات.. وقلما يقف أحدهم بالنوافذ.. الغجر المتقدمون لا يطلون من النوافذ.. دائما نوافذهم موصدة.. كأنهم يصنعون المهابة وراء الجدران، بيوتهم عالية وسميكة، قائمة على أساس لا يعلم متانته

سوى «الفعلة» الذين رموه.. أبواب مداخل البيوت من حديد، تعلو الدهاليز الرخامية المرتفعة عن الأرض بنصف متر، أبواب مغلقة ومطفأة الأنوار..

مطمئنون كانوا إلى حد الرهبة..

تطلعت خلفي موقنا بأن الذى يتابعنى لا يزال يتابعنى.. توقفت قليلا، تمالكت نفسى المضطربة .. وقد حدثتها بأن كل شيء قد اتضح الآن، فلا داعى للخوف.. فهم رجال - حتما - وديعون.. حركوا الحياة فى سبيل البقاء والنقاء، وضحكت على رغمى - سرت، عله يواصل متابعتى، ويلاحظ سخريتى منه.. تحرك هو.. توقفت، فتوقف.. توارى وراء عربة، فسرت، منعطفا نحو شارع.. أرض حجر.. بهدوئه الغريب، كنت أسلكه قبلا فأرى الرجال أسرى المخدرات يتعاطون كل شيء علنا .. كان شارعا طويلا وموازيا لشارع السلام.. أوله محطة قطار الظاهرية وآخره الحقل المسور.. توقفت.. وتوقعت إشهار مطواة فى وجهى وارغامى على أن أخرج مامعى، فاضطربت.. أيمكن أن يكون لصا.؟

* * *

إن كل أبناء الحى - تقريبا - الشرفاء منهم واللصوص أصحاب الليل وأصحابى، لا يشهرون هنا المطاوى.. فان كان -

هذا – يحمل مطواة، فانه غريب على المكان وما جاء إلا ليسطو، فاضطرب أكثر..

فى الخرابة الممتدة على جانب الشارع وقفت أتبول متعمداً، فليأت الآن ويغرز نصله فى ظهرى.. كان ظلى ضئيلا بشمالى، والقمر عاليا على يمينى، والمراقب أيضا على يمينى.. حملت قالب طوب، مسحت به نفسى وانتظرت أن يدنو .. لكنه لم يأت، ولم ارتح لذلك، فعدوت نحو شارع المسجد لعلنى التجىء لأحد الدكاكين المفتوحة الآن، فى الفجر، فقد استبد بى الخوف باختفاء المراقب عنى.. دكاكين غائرة فى البيوت، لم تكن تلفت نظرى قبل الآن.. كانت معبأة بالأجولة والبراميل وأسياخ حديد التسليح، كتل الأخشاب.. وذكريات اقترنت بعهد الفولى ومعسكرات الانجليز.. كل المغاليق التى كانت فى ذهنى تتفتح الآن، وكأن الزمان هو الزمان الحالى، بشكل أكثر تنظيما وثراء وحكمة..

بحثت مرتعبا عن مراقبى المتوارى لعله يباغتنى بمطواته.. لكن باغتنى أحد الخفراء بنابوت شهره فى وجهى، فعدوت عائداً.

بلغت مدخل بيتى، دفعت الباب وأقبلت إلى الظلمة.. وثب المراقب فى وجهى مذعوراً، فانكمشت.. كان السورى، اندهشت وهو يقول بغضب مكظوم:

- لماذا تتابعنى؟

أخذت نفسا عميقا، وقلت:

- أنا الذى اتبعك.؟

- أنت تعمل مع من؟

- أنا ...؟!

- مع أى ضابط تعمل.؟

- لست أعمل مع أحد.

هزنى بقوة كأنه ينفض عنى الخوف، قال:

- أنت جبان .... لماذا تراقبنى.؟ أنت قلق..

تهدج صوتى..

- كيف أراقبك.!

دفعنى، وقال وهو يغادر المدخل:

- اصعد بيتك، لا أريد رؤية وجهك.

السورى اللص المحترف، خفاش منازل ودكاكين المدينة، يذهب مع الليل، ويعود بمسروقاته مع الفجر.. يهددنى. لابس ثوب الميكانيكى بالنهار ليوحى للناس بأنه سمكرى سيارات، يهددنى.. قال وهو على الباب:

- قلت لك إصعد. قلقت دماغى يخرب بيت..

لم أرد. فقال بضجر:

- أنت مرشد.؟

- أنا مرشد.! بعد بقائى معكم كل هذا الوقت.؟

زاحنى لأصعد، قال:

- حتى لو كنت مرشدا.. أنا لست تاجرا.

وتركنى، على الأرض حقنة ملقاة بها بقايا من دم دافىء، صعدت غرفتى بين اندهاشى وخوف قلبى، وروعى، لمعشوقتى التى طعنت القلب منى.. كان بكل طابق رجل شرير يتعقبنى، سوف يفاجئنى بسكين .. ضايقنى هذا الشعور حتى أغلقت على بابى..

مددت يدى لزر النور.. توقفت.. ربما يرون ضوء شباكى، يعرفون أننى مازلت يقظا.. مازجتنى التفاهة، وخطر فى ذهنى امكانية وجودهم بأركان الغرفة، فأضأت النور على الفور.. طالعتنى الكتب المتناثرة على الرف الواحد. اجتذبتنى المنضدة والمقعد، وأوراق تركتها منذ الأمس.. فكرت فى مدى توجسى الذى بدأ يلازمنى، وحتمية الرحيل عن هذه المنطقة... بعد أربعة أعوام تود الرحيل.؟ انك لم تتحدث إليها حديث المحب.. لن تفهم

هى الشوق الكامن فى عينيك، أفعالها وطريقة حديثها إليك محفوفة بالمخاطر، تحدثك دائما حديث الجار للجار.. أنت مجرد جار فقط، وهى متردية فى بئر العشق مع الأقطاب.. انك تتحدث وتتلعثم، يدق قلبك وتضع فى حسبانك احتمالات بث العيون من حولك، تمنعك من اطالة النظر.. أحسست بالأسى لنفسى.. عاشق أنت، وممسك بطرف حبل العشق وحدك.. لو ملأت الدنيا بأشعارك وقصص رأسك الحالم، لن تفهم.. لقد خلقت هنا.. وحتما نالت ما ناله الفجر..

كانت تسن لسانها السليط، منغم النبرات لكى تشهره فى المعارك.. وكنت أعلم بأن هذا الصنف من النساء الشرسات لا يعرفن الخيانة، الوداعة والهدوء.. فقط يعشن ليأكلن ويشربن ويمارسن الجنس من باب الواجب اللذيذ.. يتعففن عند خلع ثيابهن، حتى لأزواجهن.. وتشعر بعضهن بأنهن قمن ليلا بالفعل المشين، فعل لم يكن يرغبن فيه، مما يجعلهن يتشاجرن – في الصباح – مع أزواجهن، أو يتدللن، بشكل سافر يغضب الأزواج، فيهرب الرجال من البيوت إلى الشوارع والمقاهى...

لكن . أشعر بأن دلال خامة أخرى، لم تكتشف بعد، أو لم تكشف هى عن خباياها.. ربما لأن التقاليد والعادات والانغماس فى المكان والعيال زاد من أساها، وقتل أحلام شتى كت المحها فى عينيها وفى تلك الأشياء المعدنية التى كانت تتحلى بها،

أقراط وسلاسل وأساور.. أحلام قابعة فى العينين، فقدت القدرة على مجرد التفكير فى منح أحد فرصة اكتشافها..

ومضت فى رأسى فكرة اكتشافها، فاستشعر راحة تداعب خيالى.. زهرة هى فى مستنقع آسن.. على بانتشالها، ولو كان ذلك على رقبتى، لكن أصدقاء الحى، الحوائط الصماء، يضحكون منى، فأرى قرون الاستغفال على أدمغتهم، فقد استطعت أن أنال، بخيالى، ما لم ينالوه.. أنا الصديق مجهول الهوية،أصنع منهم مغفلين.. قاطعو الطريق.. شاربو المخدرات.. سارقو المجتمع.. صانعو الشهامة الكاذبة فى المكان.. نكست رأسى، أنا الخائن، كما يقولون عنى.. أعاشرهم.. بين رأسى الواجب فصله وقلبى الملتحم بها، يقفون.. هم الآن فى كل الأمكنة والزاويا..

تطلعت حولى على الرغم من خلو الغرفة.. لمحت فوق أريكتى دفتراً صغيراً، وثبت إليه مندهشا.. أذكر أننى لم أره لدى من قبل، فكل ماكنت أكتبه، أخطه على ورق مصلحى قديم.. كأن أحدهم قد اقتحم بيتى أثناء غيابى.. فحصت أركانى بعين حذرة.. لم يكن هناك مايبعث على السرقة.. جلست وفتحت الدفتر.. كان مكتوبا بخط ردىء وغير مركب المعانى.. وكان على أن أعيد صياغة هذا الكلام المكتوب، أعرف أن احتمال ضره يفوق احتمال نفعه.. لكنى فعلت..

(٥)
لصوص تائبون

(المدعو .. فلان الفلانى.. مواليد حى راغب باشا، اسكندرية بطاقة عائلية رقم .. كذا .. عامل.. مشاغب.. بشركة النحاس.. مراوغ.. خاصة فى مسائل السياسة والغلاء.. متزوج من فلانة ابنة فان موظف الجمارك الحرامى، ست بيت.. لك منها طفلان، هارب من بيت الزوجية لخلافات ومسئوليات لم تعد لديك القوة لاحتمالها، لأنك تدعى يقظة الضمير.. أبوك الغلبان مات فى سنة.. كذا .. دخلت السجن لأمر جارى البحث عنه.. أمضيت كم سنة فى السجن ياكلب أمك.؟ أنت خبيث وابن... ولن تصل لشىء مما تفكر فيه.. كنت مندهشا .. لو كنت بحق مرشدا، فأنت خائن وأمك زانية فيك. وأنا أرشدك على نفسى.. أنا الهلباوى...

وقد أعلموك الشيوخ الخونة من أكون أنا .. جاءنى خبرك القصير، البغيض منذ وقت قليل.. خطؤنا الفادح، أننا تركنا أغراب البلد يصولون فى أرضنا .. لكنى استطيع أن أشتريك، أنت ومن بعثك بيننا ؟أربعة أعوام، لتحصى علينا حركتنا .. أنت

خنفسة، ونحن ذئاب هذه البلد.. إنه الخزى، أن تتلصص على بيوتنا.

.. أنا الهلباوى..

ساكن البيت الأول، من شارع السلام... هذه الشوارع نحن الذين وضعنا أسماءها.. بيتى على يمينك.. ياابن الصرمة، بيتى العالى، الواقف كالجبل فى عز العواصف.. أظنك تعرف مسكنى جيداً، وتعرف أننى أسكن الدور الرابع.. شقتان متقابلتان، لى ولعيالى الشبان. طالبى العلم فى مدارس الأجانب، فالبيت ملكى، والشارع ملكى. وأحيطك علما ياأضعف من بعوضة، أن رئيسك المسكين أجبن من أن يفسر لى معنى أن يجند تافها مثلك ليراقب أسياده..

لماذا يجندون الحثالة لمراقبة الأثرياء.؟ ألأنه مستجد على المكان.؟ أن لم يكن يعرف من أكون فليسأل الضابط السابق عنى، فهو يعرفنى، ويعرف أنه لم يعد في البلد مايشبعنى، بلادكم أعلنت الأفلاس بعد توقف الحركة فوق أرصفة الجمارك.. أوصدوا كل أبواب التنفس، أصبح الجو جافا، أصبحت العيون مغبشة، لاتبصر إلا من خلال المناظير المحشوة بالرشاوى.. ياصرمة، ياابن الصرمة، ليتنا عرفنا خبرك من قبل.. قل لمرسلك العبيط، إننا نسترزق من الخارج، ناكل عيشنا مغموسا

بالقطران.. نذهب ونعود بالعملة الصعبة «للبلد» بماذا أتيت أنت.؟ تبحثون عن الجوعى المتوارين فى أركان الحى، لأنكم جوعى.. فنحن لسنا مساكين.. نحن نمتلك، وأكثرهم يعرف من أكون .. أنا الهلباوى.. أجلس الآن فى قلب بيتى.. على يمينى عيالى، على يسارى الجوزة والموقد والخادم الأعور العجوز.

لا يسطلنى سوى الحشيش الطازج.. أشتريه، وأبيعه، وأشربه، مع عيالى. ثم أمارس الجنس، يابن الحرام، بقوة شاب ابن صرمة مثلك، يحتضن بالليل الوسادة، أو يحلم بامرأة مثلك.. لن تنال شيئا من البنت دلال.. امرأتى هى الساعد والأصابع، ترحل وتعود بالنقود لتنفق على كتيبة أفراد...)

انكمشت.. توقفت قليلا.. أستعيد ماتوصل إليه رأسى من اندهاش.. نحيت الدفتر باهمال.. لكننى تناولته، وكأن الهلباوى ينهرنى ألا أتركه..

(أقول لك يابن.. إننى لم أطق لحيتى حبا فى المظهر الوقور، لكننى أطلقتها منذ بدأ قائدك الأعلى يلملم الذقون من السكك والمصانع والورش والجوامع، ليودعهم السجون. كانت رغبتى أن أعاند قائدك.. ولا أكذب على أمك يابن الزانية. أننى منعت عن نفسى كل ما هو حرام.. بخدى الأيسر خدش طويل يبدأ من شق العين حتى أسفل الذقن. ضربنى أحدهم – ذات ليلة –

بمطواة وفر، ظللت أتبعه شهرا، حتى توارى يوما بقسم البوليس، هاجمته هناك، وقطعت أذنه بمطواتى، ولم أفكر فى الجرى، كان معى نقود.. أتفهم..؟ نقود.. كانت هذه هى بداية إطلاق لحيتى، وإن أردت الدقة لنقل قسمات وجهى لضابطك الغلبان.. فإننى كالنخلة.. عيناى جاحظتان.. حمراوان، كجمرتين متوهجتين.. أقعد على أطراف أصابعى.. كقط متوحش.. متوفز.. أخبىء رؤوس أطفالى بشعر صدرى، على ذراعى الأيمن وشم أخضر، لقلب أسد، منجلة وتاريخ ميلادى، المعروف لدى الحكومة.. أصلى وتاريخى واسمى على ذراعى.. أتعرف، أتعرف ماذا أعنى.؟ ليسوا برأسى.. كل شيء قابل للتغيير، المجابهة، الكشط والازالة... وإن تعسر الأمر، أقطع الذراع، ولك أن تضع فى اعتبارك، أننا سوف نقتلك عند أول بادرة شر تصدر منك.. لا تغرنك الذقن.. إنها تخفى الكثير من البغض)..

أغلقت الدفتر، وقلت فى نفسى.. لم يأت تخمينه فى مكانه الصحيح.. حسبنى مرشدا كما فعل هؤلاء المتخفون تحت إبطه.. يأتونه بالأسرار والأخبار.. ضحكت على أسراره، توجست، فان ماقصه على يعتبره - وهذا مؤكد - قوة وجبروت، فهو يستطيع أن يسلط أحد صبيانه ليقتلنى ليلا، ولم لا يفعل.؟ قلت فى بالى، إن هذا الموضوع الرهيب، يمكن معالجته معه شخصيا..

باعترافى الكامل بأننى مجرد مواطن بسيط، إنبهر بما يظهرونه من جبروت، وهذا على أية حال، أخف وطأة مما يمكن أن يلحق بى من عشاق دلال، هؤلاء المتهورون، لكن فى كلتا الحالتين، محاصر أنا ومقتول...

* * *

تصالبت الشمس فوق البيوت والشارع الذى شهد ناسه المتطفلين، وقوفا كانوا فوق الدهاليز ، خلف الأبواب، فيما وراء النوافذ الموارية، يتطلعون بأعين ترددت فيها رغبات النظر إلى عربة نصف اتوبيس، توقفت بعد زحفها البطىء، قدام بيت «سكر» المواجه لبيتى، بيت قصير، قمىء، بطابقين.. كان ركابها الذين لامست رؤوسهم سقف العربة قد بدأوا يهبطون واحدا بعد واحد، ثم هبط رئيسهم المتأنق إلى جوار السائق.. كانوا يتقدمون بسحناتهم المتجهمة المسودة، كأنهم يقومون بمهمة يعتقدون فى فشلها مقدما، لكنهم يحاولون... وقفت مثل كل الواقفين، مشاهدا . لكنى كنت مستغربا لترددهم فى المشاهدة، بين النظر والخوف الخفى..

أسرع المتأنق إلى داخل البيت وخلفه الرجال المعلقة بأكتافهم العريضة ثياب مهرولة، بينما رؤوسهم الكبيرة مغطاة بطواقى لبادية مخشوشنة، ذكرنى تواثبهم ذلك بزمنى البعيد، القابع فى

الذكرة، حرب السويس، الاستنزاف، فئرانا كنا، مذعورة، تتواثب، تتوارى فى الخنادق، ثم هجومنا المروع فى أكتوبر..

كانت الأبواب تبتلع بعض المشاهدين، خلف الدكاكين والبيوت، كأنهم يعلمون ما سوف تسفر عنه عملية الهجوم.. اندهشت لهذا الاختباء المفاجىء والقاطع لترددهم والذى تزامن بشكل روتينى مدروس مع دخول الرجال عند أول العتبة..

أوعزت ذلك - لأننى لم أنصرف - إلى خوفهم من هؤلاء المهاجمين.. لكنى علمت بعد ذلك بأن اختباءهم، كان تخوفا نابعا من احساسهم. بأن - سكر - حتما - كان يراقبهم من الداخل، من وراءشباكه الأرضى الموارب.. واعتقدت، بأن هؤلاء القادمين، أقرباء حميمين لعائلة سكر، وأنهم - وهذا احتمال - قادمون من الصعيد أو الأرياف، أو هم زملاء عمله الذى لم يكن أحد يعرفه على وجه الدقة.. يقول البعض، أنه «مخزنجى».. وما ذلك الذى يخزنه رجل لايغادر الشارع ليلا أو نهارا.؟ الزملاء لا يأتون بهذه الكثرة، زملاء فارغو الأيدى متجهمو الوجوه والحركة والثياب.. يأتون فى أوقات متفرقة من الليل أو النهار.. يأتون بغتة، بلا مواعيد..

اجتذبنى تحركهم المريب... أنا الوحيد الذى تبقى واقفا، يشاهد الرجال يوصدون الشباك الأرضى بهبدة غيظ ، كأنهم لا

يريدون لأحد أن يطلع على مشاكلهم..

أدركت مسامعي بعض أصوات همست عبر الصمت المصاحب لوهج الشمس واحتباس الأنفاس..

.. أيزخذونه معهم.؟ أم سيضحك عليهم كعادته.؟؟

ذلك كان يحدث عند قدوم العربة برجالها المسرعين، ولم أكن أحسبه قبلا، أو أبالي به..

ثم أسمع أصوات أقمشة تتمزق.. أواني ترتطم بالأرض، وتتبعثر، أصوات لأرائك تتزحزح.. ثم تفتح النافذة وتتطاير نتف من قطن – مع الأنفاس – إلى الشارع...

أقسم بأنني لم أكن أعرف بأن هؤلاء الرجال تابعون لمكتب مكافحة الصنف، المخدرات، وأن المتأنق هو الضابط «عفت» الجديد.. صدقوني.. الذى أخذ على عاتقه مسئولية تطهير الحى... لكنهم غادروا البيت مطأطئى الرؤوس، يحدوهم أمل في العودة والنجاح..

أحسست بالأسى، فى حين اصطدمت عينى بوجه سكر المطل من نافذته.. يبصرنى بقرف واضح.. متحديا، فأطلت إليه النظر.. حريصا كنت على أن يرى مايكمن فى عينى من براءة وأن يدرك بأننى آسف عليه، لكنه بصق فوق الأرض بقوة، بصقة ملغمة

وصفراء، كابية، رقدت فوق تجاويف رأسى المرتعد..

* * *

تحتم على، فى الوقت الراهن، أن أطلب حمايتى من البوليس.. أن أذهب وأحدد لهم تلك الأمكنة التى اعرفها، أوصاف بعض الوجوه، فقد بدأ حصارهم حولى يتفاقم، ويزيدنى ريبة فى امكانية فرارى من بين أيديهم.. فلو كانوا يراقبوننى لشعورهم بأننى أعشق «دو» فأنا لم أمسها يوما إلا فى تخيلاتى، فى وحدتى، غرفتى، بين أوراقى وهم، بالطبع، لن يستطيعوا الدخول لمنطقة رأسى... وإن كانت مراقبتهم لى تشمل شكوكهم نحو سلوكى ورد فعلى على كل ما رأيته، فذلك أفظع، وفوق قوة احتمالى ولامناص من ابلاغ البوليس.. فكرت فى هذا كله أثناء تقدمى الحذر نحو محطة قطار باكوس، متخذا أسهل الطرق الآمنة،أو التى يمكن أن تكون آمنة.. أن أكون فى مأمن منهم، على الرغم من علمى، بأن هذه الطرق، يتراشق أهلها المريبون على أبواب بيوتهم متفاوتة الطول والعرض، قاعدون فوق الدهاليز، والأرصفة، يغزلون خيوط الشمس شباكا لى، يدخنون. ويلعبون الورق، وعادة ما تكون نساؤهم المسترجلات إلى جوارهم، مقرفصات، أو جالسات، تغطين سيقانهن المعروقة بأطراف أثوابهن القديمة، يرمون شباكهم حولى... ولجت من

شـارع السـلام إلى شـارع الزهـور، ومنه إلى شـارع المخـتـار، مدركاً بأن عيونهم منبثة عبر النوافذ والشقوق والجدران الصفيح لبعض الأكواخ.. ترقبني، يرشـقون نظراتهم بظهرى، فتـتعـثر خطواتى.. بلغت شـارع السـوق المستطيل المزدحم بالخلق، خـيل إلى وقتـها بأننى نفدت بجلدى من هذا الموطن الشرس، غير أن خيالى أدرك على الفور بأننى مجرد حالم، أسوس الوهـم..

كيف يتسنى لى الذهاب إلى القسم.؟ ولو ذهبت، كيف تكون العودة؟ العودة إلى بيتى المحاصر بتلك البيوت العالية؟

هل يمكننى الهروب إلى مكان آخر من البلد.؟ إنهم يعرفـون كل شىء عنى تقريبا.. وتابعت سيرى الحذر..

داعب أذنى صـوت.. «دودى»، يدعـونى لم ألتـفت، وقلت فى نفسى، إنك مازلت تحلم بالمستحيل، كيف تجرؤ هى وتدعوك؟.

لكن النداء تكرر.. ليس الوحيد، فى هذا البلد المزدحم المدعو بهـذا الاسم، وليس الوحـيـد الذى يمكن أن يتـوهم، فكل الناس يعيشون فى وهم هائل اسمه الفرج القريب الآتى، ومع ذلك، أنا الوحيد الذى يمكنه أن يتوقع سماع صوت دلال، فى كل زمان ومكان، أن يستحضر شكلها نداءها.. توقفت ملتفتا.. أهو حلم؟.

هو صوتها المرتفع الذى لم يكن يخشى خشية لوم. قالت فى

ضيق وهرولة:

- ألم تسمع .؟ انتظر.

مبهوتا كنت واقفا.. ملتصقا بالأرض، تلك التى تربطنى بها أواصر، صلة رحم، أرضى، صلة غير متاح تلاحمها.. توقفت أمامى وخف قدمها يتوقف عن إثارة الأغبرة.

مسحت بصوتها المتهدج، كانت تجرى، كل هواجسى، ارتجفت أوصالى لمجرد تخيلها وتذكرها وهى تتبع خطوى وسط السوق، وبين احتمالات وجود بعض المعارف.. لكننى نسيت، حتى تواجدى.

قلت بخلجات نفس مسحوبة إلى جوف يتقلص سعادة:

- كم أنا سعيد برؤياك.

ابتلعت ريقها بأنفاس متعبة، والشارع يعج بالخلق، باعة الخردة والثياب القديمة وأكشاك الخضر المتواجدة بحذاء سور شركة البلاستيك القديم.. لم أحول عنها بصرى.. وجهها الأبيض المخلوط بالحمرة قبالتى.. معكوسا كنت فى العينين السوداوين، أنفها المبطط يشم رائحة أنفاسى، شفتاها الشهيتان تلفظان كلاما غريبا، عذبا، ينساب فى وداعة تلهب الأعصاب.. شفتان لايزال أحمر الأمس يصبغهما.. قلت بصوت حاولت أن يكون

متزنا:

- ماذا كان يفعل عندك الهلباوى؟.

امتقع وجهها وكأنها بوغتت. قالت:

- هذا ليس وقته.

- لكننى..

قاطعتنى قائلة:

- خذ بالك .. انهم يعرفونك جيداً..

ما الذى أحذر بعد تخوفى.؟ قلت وكأننى أجد، أخيراً من يصدقنى.

- أنا لست مرشداً..

- أصدق ما تقول .. لكنهم لايصدقون.

- لقد جندوا أنفسهم جميعا لمراقبتى..

- خذ بالك جيداً..

.. دودى.. تحذرنى.. تتبعنى لتحذرنى.؟ على الرغم من كل شيء، أستشعر السعادة.. ماكنت أتوقع أن تحذرنى هى، تهتم بأمرى.. كنت أخافها أحيانا.. أخاف لسانها السليط اللاذع

الذى لا يتورع عن شتم أقرب الأقربين لها، لو زاد فى التعامل معها عن حد الأصول، «دودى»، بجمالها الصارخ الشهى، بأسرارهاالمخبوءة المحيرة، تلاحقنى، أنا المتخيل.. تواجدها دائما معى، تحذرنى.؟ مأواى، تواجهنى، تبثنى شعور الصدق، بعد أربعة أعوام، ضربت فيهم أوتادى بأرضهم الجديدة.؟.. أراها على وجل بصدرها القوى.. تحدثنى وحدى.. قلت:

– جئت بعد بحث منهك عن سكن يأوى بدنى وكتبى وهموم موطنى فأجدك.؟

قالت فى سرعة:

– هم قوم طاغون، لن تقدر عليهم.

– أتريدين أن أترك الحى.؟

– لا أقصد هذا .. ولكن حاذر.

قلت، ومازلت أبحث فى عينيها عن وطنى المهتز.

– تخافين علىّ.؟

أجفلت لحظة ثم قالت:

– سمعتهم يتحدثون عنك..

قلت على حذر..

- يوجد فى البلد حكومة.. أمن..

استغربت لسؤالى، غير مدركة، قالت:

- ماذا تعنى بأمن.؟

- حكومة..

تهكمت قائلة:

- حكومة.؟ أنت انسان خيالى..

- يجب أن نفعل شيئا..

- الحكومة نفسها تتجنب التحرش بهم.. أهم ناس عاديون..؟!

- وأنت .. ألست منهم.؟

قالت فى دهشة:

- أنا لست هنجرية.. أبى فقط كان يعمل عندهم.

اختلسنا للشارع نظرة.. أردت تقول:

- إنهم يمنحون المخبرين نقودا، رواتب شهرية..

- والمخبرون بالطبع، يعرفون عنهم كل شىء.؟

- تقريبا..

– لماذا إذن يطاردونني؟.

– المخبرون معروفون، واضحون ، أما المرشدون، فانهم خونة، لا يؤتمنون على أسرار..

أعرف أن المرشد، هو بائع سابق،خريج حبس، يجند بمعرفة الضابط ليكون مرشدا، فهو أعلم الناس بمكان موزعى المخدرات.. وغالبا ما يرفض بعض المزمع تجنيدهم قبول العمل مع الضابط خوفاً من هؤلاء البائعين والتجار القتلة لكن الضابط يعده بأن يكفل له الحماية، وحمايته – كعُرف متبع فى الأقسام – هى متابعة المرشد، ثم ضربه – أولا – عند كل تفتيش، أو الاعتقال «عند القبض» التمويهى، بحيث يعتقد المقبوض عليهم بأنه – فعلا – صديق صدوق لهم. كان بحق معهم، أما الرافضون منهم، فهم واقعون – لامحالة – تحت طائلة الضابط، قسوة الضابط، مراقبة المخبرين، يظلون مطاردين فى مساكنهم، ولا يتورع الضابط عن إلصاق التهم بهم بحجة أنهم «سوابق» واعادتهم إلى الحبس..

كانت تتباعد عنى رويدا .. وتقول:

– اذهب الآن..

قلت بصوت متهدج:

- لم نقل ماكنا نريد قوله..

كنت انظر لوجهها المتباعد، علنى أرى تأثير كلامى، كانت سمة التحرج الممزوج بالضجر تلوح عليه، كأنما توقعت منى سماع هذا القول.. فقالت:

- نحن لم نترك المكان بعد..

وغابت بين الناس.. حقا.. لم نبتعد بعد، سوف نتلاقى ثانية، ونتحدث، كثيرا.. كثيرا.. وليت شطر المحطة وجهى.. شغلت رأسي.. على ناصية الشارع.. استوقفنى فتحى، جامدا وغاضبا.. ينفخ ضيقه فى دخان سيجارته، توجست.. لقد تعمد مراقبتى.. لم أبال، وتابعت سيرى نحو المحطة.. حين ابتعدت.. التفت خلفى. كان قد اختفى فيما وراء سور الشركة القديم.. تحققت توقعاتى على المحطة.. لمحت وجوها أعرفها جيدا. تلوح من بين زحام الرصيف.. السورى، حسن رامبو، وآخرين لم أعرفهم..

الآن. كل شىء أصبح واضحا، إننى - فعلا - تحت مراقبة شديدة لحد الشعور باللامبالاة. فليفعلوا ما يروق لهم.. ان كل مايشغلنى الآن هو حديثى مع «دو» وشعور النشوة والابتهاج وتلميحى لها بأننى أحبها - وركبنا القطار..

«كانوا معى».

فكرت كثيرا فى أمر دلال حين أفقت من روعة اللقاء.. التحذير، الخطر المحدق بى.. فكرت.. بدت لذهنى كومضة كهربية نبهت واسى لذلك الخطر الداهم.. وكانوا حولى ..

كيف توصلت هى لمعرفة ذلك الأذى المخطط لى.؟ كيف وهم الذين يفعلون، فى سرية بالغة، وكتمان فائق.؟

«كانوا يتملصون عبر الأجساد المتلاصقة بخفة ويقتربون منى».

كيف وهى القابعة فى كنف بيتها لاتغادره إلا قليلا.؟

«كانوا يطوقون بدنى عن قرب»..

تخيلتها كثيرا كوردة أسيانة، متفردة فوق عودها الشائك، في بستان ورده ذابل.. لا يقربه.. خولى.. مع ذلك تحتفظ بهذا الجمال الآسر، جمال رائق، لايذبل، الأخريات يذبلن، يضربهن الزمن المتقلب وهى كما هى.

يتطلع الرجال إلى شباكها بخبث، ويمضون تحت نظراتها المتعجبة..

شغلنى ذلك حد الألم.. حد الشعور بأنى وضعت بين فكى



أسد شرس، بين العشق والخطر.. أهى حقا على صلة بهم.؟ هل يفشون لها أسرارهم.؟.. بعض الرجال فى لحظات المضاجعة واللاوعى يتحدثون جزافا.. هل هى تمتص أسرارهم مع النخاع.؟ أعوذ بالله، لكن الشواهد تدل على ذلك كله.. أبدا لم يكونوا على هذا البله والتفاهة بحيث يبثون الآخرين نواياهم، خاصة إن كانت تلك النوايا تتعلق بالقتل، أو الابتعاد..

أعرف أنهم يملكون ثلثى شارع السلام، وبعض النواصى، فهم الذين خططوا وأطلقوا على الشوارع أسماء.. وليكونوا على دراية تامة بمفارق الطرق.. لكنهم لم يكونوا يملكون شيئا بشارع البستان، هذا المتطرف قليلا عن شارعهم الكبير والتى تقطن دلال والسباعى بيتا فيه.. بينها وبينهم مسافة خمسمائة متراً، تتخللها البيوت والدكاكين والأكواخ الصفيح والخشب والرجال، رجال يتحلون بالصمت، الصمت المدهش..

أحسست بقسوة التفاهة نحو نفسى.. أنا المحب الواثق الحالم، المصفوع، المبصوق، المعتقد بأنه العاشق الوحيد الذى وضع لجمالها مقاييس جديدة، لا تقارن بهؤلاء النسوة على الأرصفة والدهاليز.. أنا المعتقد فى مسألة اكتشافها، ذلك يسعدها ويطربنى، حين ألمح لها بأنها أجمل نساء أرض الفولى، تجفل... يستغرقها الشرود والصمت، كأنها غير واثقة من كلامى

أو أن هناك جميلات، مثلها، وأفضل، وأنني أقول ذلك مجاملة ولكوني وحيداً بلا زوجة فلا أقوله أنا، بل الرغبة المحبوسة داخلي هي القائلة، لكنني صادق فيما أقول، ويأخذها الشرود.. ربما لشعورها الخفي المشوب باللوث، هذا اللوث الذي يتبادر إلى ذهني، مصحوبا بجمال فائق يسقى بماء آسن... لكن ما أدراني.؟ لماذا يعتريني الغضب.؟ ولم أغضب.؟ لعل ما فكرت فيه كان وهما، خيال كاتب هاو... الحب أيضا وهم، العشق وهم، البقاء بأزمنة التعايش الجنسي كان سرابا..

ما حيلتي لو كانت معشوقة لكل الناس.؟

أليست هي التي سعت إليك لتحذرك.؟

أكانت تعلم بحبك المخبوء.؟ إنها تبادلك نفس المشاعر، تلك المشاعر الوليدة، المبتورة، المحجوزة بأربعة أطفال، ورجل، سد خانة...

أيعلم سد خانة بما يدبر لي في الخفاء.؟

وإن كانوا جميعا يعلمون، لماذا يلزمون الصمت؟. وماذا تراهم يفعلون.؟ أيذهبون مثلك لقسم البوليس.؟

أيتحملون مثلك، أيها الحالم، قسوة التفاهة.؟ التفاهة؟.

أحطوا بي، وكان على أن أهبط في أقرب محطة واستقل

القطار العكسى وأعود إلى بيتى فى صمت، أنتظر.. أنغمس فى المكان.. أنصهر معهم، أمارس حياتى بشكل اعتيادى وطبيعى، على الرغم من المتغيرات الطارئة التى أسكنت بقلبى الذعر..

فشلت فكرة العودة، بإرادة حسن رامبو، والسورى.. سدوا على سكة النزول، قالوا بصوت ضاعت معالمه بين الركاب ولكنى فهمته..

– أين ذاهب أنت ؟ أنت قادم معنا..

لم أبال .. ذهبت معهم، نزلوا محطة مصر.. ركبوا عربة نصف اتوبيس، كانت لأحد سكان الحى... توجهوا إلى طريق العامرية، ومنها إلى منطقة الحمام، ثم «مراقيا» أسماء لم أسمع عنها إلا فى هذا الزمن الجديد...

توقعت قتلى.. إنهم ينوون – بالتأكيد – فعل هذا فى الخلاء البعيد، أردت أن أسأل.. أتكلم.. لكن صمتهم المريب أسكتنى..

توغلت السيارة فى الرمال.. لم تشد انتباهى تلك المصانع والمزارع وأكواخ الصيف المترامية هناك..

توقفت السيارة وهبطوا منها.. تركونى وحدى، وتسلقوا مرتفعا رمليا – غابوا خلفه لعدة دقائق.. ثم عادوا يحملون بعض أجهزة ألكترونية مغلفة بأقمشة وضعوها على المقاعد الفارغة من السيارة، التى انطلقت عائدة، ونظر السورى إلى وجهى

وضحك.. كنت مندهشا، قال:

- أتعرف هذا الذى جئنا به.؟

قلت : إننى ماعدت أعرف شيئا.

فضحك رامبو وقال:

- لأنك غبى.. نحن سرقنا الشركة الاستثمارية الآن، تلك الشركة الموجودة وراء التل، وسوف نمر بهذه المسروقات من شوارع الاسكندرية، ولو عند أمك كلام فقله.. نحن نسرق نهاراً، وعينى عينك.

ابتلعت دهشتى.. لقد جاءوا بى فقط ليطلعونى على احدى العمليات.. سكت وحمدت الله أننى نجوت من الموت فى الخلاء.. ولأعترف، بحق، أننى خائب فعلا، يتفاقم ذعرى، ينمو، أنكمش لأصبح نملة، توجب عليهم سحقها.. سوف يفعلون عندما يتراءى لهم ذلك... ربما يتركونها الآن لتشعر بمدى ضآلة حجمها.. قالوا:

- تعرف ياخيبة أمك، لماذا نسرق.؟

كنت أنظر إليهم بلا إجابة.

- نسرق من أجل تعديل الكون.. المزاج، أتعرف ماهو المزاج؟.

– هاهو أنت موجود معنا، هل رأيتنا نسرق أملاك الدولة.؟

وكانوا يضحكون.. وأنا أتضاءل، وكنا نخترق شارع (أبو قير).. توقفت السيارة قبالة شرطة الرمل... نظروا إلى وجهى بسخرية ثم فتح رامبو الباب وزجنى إلى الخارج وهو يقول:

– هيا .. إفعل ما تريد.

ضحك السائق وقال :

– أتحب أن ننتظرك..؟

تركونى فوق الرصيف أجتر تفاهتي.. ودهشتي..

كيف يصدقون بأنني لست مرشدا ؟.

حسن رامبو. ذلك الصديق الأسود، متموج المزاج، هادر الصوت، قصير القامة، سريع الحركة، دائم الجلوس على النواصي، يدخن السجاير المحشوة، يغنى وينتظر نشوب أية معركة تخص الجيران ليدافع، ليخلع قميصه، يظهر عضلاته وأفضل من يشهر مطواه..

أيمكن أن يدفعني وهو العالم بأنني غير فاعل.؟

أيقنت بأن رامبو، والسورى وغيرهم كثيرون، متخصصون فى السرقات، لصوص اختصاصيون، وتابعون للأقطاب، مثلهم.. مثل فتحى..

(٦)
تحت أبط

كلما أبعدت فتحى عن ذهنى، غاص فى تلافيفى.. كان يشاركنى عشق «دودى» بشكل متعمد ومنفر، إنه أكثر ايجابية منى، فهو الشاب المتفرغ لها وللشارع، المتسكع دوما على أرصفة الحى، بلا عمل..

يجب استبعاده فعلا، حتى لا يشكل لذهنى الممتلىء بكيان دلال أى عائق يبطل من سير أحلامى.. لكننى اكتشفت أنه متداخل فى عائلتها على نحو يبعث على الاستغراب، أنه، فى الظاهر، الصديق الأوحد، المسيطر، ربما، على قلب يمتلكه، بامكانه الدخول والخروج، واللهو مع صغارها كأنه هو الزوج.. لكن مراقبته لى قلبت برأسى كل الموازين، مما جعلنى أرصده متعمدا.. أحسست بأن بينهما رغبة، متأججة، لم تخمد بعد، رغبة متأنية على الرغم من أنه متزوج حديثا ويقطن بالبيت المقابل لبيتها.. يقول البعض، إنه صديق طفولة لدودى، ويؤكد ذلك عم مرعى، والحاج السباعى... إلا أن ذلك لم يتقبله عقلى..

إن خلجات وجهه المنتفخ، بورم العنجهية.. ترتجف كلما رآها.

إنه الظل الذى لا يفارق صاحبه، ظل اليمين والشمال والوراء والامام، التابع الأمين، مفسح الطريق، الحارس الوجل.. إن كان الشارع واسعا فهو على اليمين أو الشمال. أن ذهبت لسوق باكوس فهو فى الوراء.. إن دعيت لأحد أفراح الحى فهو فى الامام .. يصد كل العيون التى تشاهد جسدها المتثنى ولا تجفل.. يمشى ببطء.. واضعا يديه فى جيب بنطلونه الوحيد، يتابع خطوها الوئيد...إنه المخبر السرى الخاص، الجاسوس المتخفى فى كل ألوان الطيف.. إن كان مقبلا، أو مدبرا، توقعت ظهور دلال.. كان مبعوثا من قبل قوة عليا لايدركها العقل الغافل... ربما قوة الحب، أو قوة الثقة بأن أجمل نساء الحى تعشقه.. لكن كل ذلك لم يكن يدفع إلى الذهن باليقين.. كيف تعشق رجلا أجوف.؟ يتعالى كالملك المخلوع الناقم، أو التاجر المفلس، أو الشاب المظلوم من قبل المجتمع الظالم.؟ الشاب الذى ضحك عليه الزمن، بعد أن منحه عمرا. ثم قذفه إلى الركن القصى على شمال الدنيا.؟ كان لابد – كما كان يعتقد – أن يكون فى مكان ما من العالم البعيد.. أمريكا، أو فرنسا، أو على الأقل دولة عربية.! وهو الجاهل بأسماء حروف اسمه.!!

هناك قوة أخرى تسيطر، قوة أكبر، ليست كقوة الأعوان أو

الصبيان، بل قوة الأقطاب.. قوة جعلتنى ألوذ ببيتى، يغلفنى صمت رهيب، أكتب وأشعر بأن كل أقسام البوليس، مجرد علب من كارتون مسكونة بالفئران والصراصير والأفاعى، يمكن سحقها بأقدام أعوان الأقطاب..

أصبح كل شيء واضحا الآن، وضوحا يصادر دماغى.. يقهرنى.. يشعرنى بأن دلال تطعننى – تطعننى، وتضحك منى..



(٧)

بوابة للقهر

مــــرارة الملح بحلقى.. بصـــقت على الأرض ملحى.. الآن استطيع ربط الأحداث.. تدوين المخاوف.. العلاقات الآثمة، المروعة..

أيمكن أن تكون على هذا الانحطاط.؟ وهذه المنطقة على هذه القزازة.؟ أغلقت على بابى.. حاولت أن أغفو. أنام، غير مبال لذلك الملعون الذى تسلل إلى غرفتى للمرة الثانية..

أوراقى مبعثرة على المائدة.. شىء يدفعنى لبيتى القديم.. لكن الغيظ يثنينى يقعدنى.. الغيظ والقهر يبقينى، يوقظنى، يؤرقنى.. جـــمـعت أوراقى، فكرت فى حـرقـهـا .. دليل إدانتى.. نودى، تخايلنى.. تتأرجح بين محاولات استبعادها عنى والبقاء..

حرام تضـيـعين بين قـهـر الشـبق واقـتدار اللصـوص... بين الغرقى فى الوحل، لأنك لا تملكين جرأة القول وحقيقة مشاعرى، فض أسرارهم.. أوقـفـونى فى الشـوارع.. لأنك لا تملكين فـوهة النار بجسدك الفاتن المستباح ولا تحرقينهم، ولا تعرفين معنى

العشق.. ترصدوا خطوى فى الأزقة.. غلقوا دونى كل أبواب العشق والهروب - باب العودة لبيتى القديم، وضعوا بسكك سيرى السكاكين والعيون، لأننى أحبك ، منعونى من النظر إليك.. الهرب منك ينجينى .. ماجدوى أن أهرب؟ الهرب منك إليك يؤرجحنى.. يستلذون هم بوهج نارك، يستحلبون تواجدك بين الغرقى فى الشوارع.. يسدون فوهتك بالمال وبما تبقى لديهم من نخاع صدىء.. أنت لاتجرؤين على البوح بما تعرفين.. هاهى أنت والشوارع الغرقى بهم.. ينهشون لحمك بلا رادع.. واردعك البحر ينتظر منهم النقود.. الخروج.. لافائدة ترجى من دلال..

وعلى أن العن نفسى التى هيأت لى حبا جميلا، طاهراً، لم أكن أحب أن ألوثه.. لو سنحت لى فرصة التلوث..

لا فائدة.. لن تجدى الكتابة.. سأعترف لها ولهم بأننى تافه.. سوف أعطيهم أوراقى فليقرأوها لو كانوا يعرفون القراءة..

ما الفائدة الآن؟ كل شىء قد انجلى عنى، وعنهم.. لابد أن أنهى ما بدأته، فلن ينقذنى منهم شىء.. تناولت قلمى.. علىّ أن أشطب دلال من رأسى.. لكنها تخايلنى - استلقيت على فراشى.. وضعت رأسى فوق المخدة.. ثمة أوراق عليها. أوراق مبعثرة مرقمة ومكتوبة بخط ردىء..



(٨)
التصالح

نحن هنا .. حولك، أمامك، خلفك، تحتك، فوقك، داخلك، لافائدة، لقد تعرفنا على أصلك القذر.. أنت عدو لنا .. نحن مواطنون صالحون، تصالحنا مع الوطن، نحن الموسرون، الملتحون، التائبون، العائدون.. لن نجعلك تعيد لنا الماضى البعيد، ذلك الميت المدفون.. لو أحببت نبش القبور، فنحن أولى الناس بفعل ذلك.. نحن لا نحب وجع الدماغ.. لقد قبلت توبتنا منذ عشرة أعوام - توبة نصوح - منذ أغلقت أبواب البلد، لم نعد نرتكب أخطاء.. آخرون هم الذين يرتكبون الأخطاء.. يرتكبونها بعيدا عن بلدك.. بعيدا عن ذقنك.. ياعدو الله..

- استغربت .. لم أكن يوما بعدو الله..

كتبوا يقولون - وهذا المكتوب لم أكن أعلم عنه شيئا، فأنا لم أزر يوما قبر الرسول..

* * *

(٩)

مـواسم الغلوس

الآخـرون يذهبـون بملابس الإحـرام.. يلتـفـون حـول الكعبـة.. نصف عـرايا.. أجسـامـهم متـوحدة الزى، تتـواثب ببطء شـديد، كطيون تنشد الارتفا ع فوق مستوى الأرض.. يطوفون بابتـهال وخـشـوع، رافـعى الأذرع والأدمـغـة تشرئب وتتطلع بأعين ملؤها الرجاء، التـوسل، تمسح رداء لكعبـة الموشى بالديبـاج والقصب، تتهدج أصـواتهم المحشرجة .. (لبيك اللهم لبيك).. كانت هذه أول مراحل الطواف السبعة..

(لبيك اللهم لبيك).. الزحام على أشده.. كأنهم يقضون أيامهم الأخيرة، (لبيك اللهم لبيك).. كان وجه على الانجليزى المضروب بوهج الشـمس والبـحـر، يلوح بين الجـمـوع الغـفـيـرة، بملابسـه الإحرامية، مثلهم، يتهدج صـوته الجهور.. بالدعاء.. يثب بقدميه المدربتين جـيـدا .. يرتفـع كـعـبـه الأيسـر، ويدفـع بمشط الأيمن، ويبدلهما بارتفا ع جسمه، كأنه مارس العملية كثيرا، فكان يؤديها على أكمل وجه طائفا .. مـعلما بعض الحجـاج القريبين منه أن

يفعلوا مثلما يفعل.. أن يتحركوا مثله، حتى يقبل الله.!! كان يخرجهم من نشوة الخشوع الغامرة، ممسكا بحزام أحدهم الملفوف حول وسطه، وعلى الممسوك أن ينتبه ويصلح من وضع قدميه على الأرض هكذا.. ويمثل لهم أثناء طوافه البطيء، ويمضى الآخر موافقا وسعيدا، شاكرا ، ليدخل فى نشوة الخشوع والتعبد، ويغيب فى وجد اللقاء، فى حين يتسلل على بين الأبدان ليوارى شيئا فى جيب حزام وسطه العريض، المصنوع خصيصا لاحتواء أكبر قدر ممكن من أشياء الطائفين .. وفى الدورة الثانية، عند منحنى الحجر الأسود.. يدفع ببدنه الضخم أبدان المتزاحمين، يدخل يديه المتحركتين بخفة إلى ثوب فضفاض لامرأة يعرفها، زوجته، وكأنهما يتلاقيان مصادفة، ولا يعرف أحدهما الآخر.. يضع بفتحة على جانب الثوب فتحة خصصت أيضا لذلك، كل مسروقاته وتكون هى قد لامست الحجر قبلته... ويعود هو للطواف بخفته، تواثبه، ناظرا بعينى صقر، متطرفة، فى الوجوه المجاورة الشغوفة اللاهثة، تلهج بالسؤال، وجوه غالبا ما يكون الزمن قد هد منها القوة.. وجوه شكلت قسماتها ذنوب قديمة، فراحت تذرف الدمع. لعل الدموع تغسل القلوب.. يعرف هو كيف يجاورها أثناء الطواف.. يعثر عليها.. أبدان لم تحتمل بعد، تكملة الطواف.. الدورة الرابعة..

كان هو يدركها فى لحظة السقوط على الأرض.. بين الزحام .. بين الطواف والتساقط يرصد الفريسة، يتساقط بدوره، كخفاش أعمى بليل أسود..

يصطدم بالفريسة.. فى البدء يحمله.. يساعده على الوقوف، الإفاقة.. وحين توشك الفريسة على النهوض، يكون على قد نال ماسعى إليه.. ويطوف.. في الطواف رحمة ياسيد الفجر... ترحم نفسك والآخرين.. تسلبهم ماجاءوا به لتوزيعه صدقة ومصروفات..

فى الطواف نعم.. نعم أسبغها عليك الأغنياء الذين جاءوا يغسلون ذنوبهم، يريدون التوبة بنقودهم، نقود يعلم الله من أين حصلوا عليها..

وأنت ياسيد الفجر.. تزاول عملك.. يغسلون ذنوبهم بالمال، وأنت خال من المال... المال للغنى نقمة للفقير نعمة، إن لم يعطها لك يسراً، أخذتها أنت عسرا.. قسرا.. يوم مولدك يانبى. يوم مولد لنا.

يوم مولدك يانبى الله.. نأتى إليك سعيا.. ياناصر المظلومين، يارفيق المحتاجين، نسأل العون فى رحابك، فأطلب المغفرة يوم لقائك بالعلى القدير، نحن الفقراء إليك.. نأخذ من ضيوفك



الميسورين، الآتين من كل بقاع الأرض لينثروا أموالهم فى السراء والضراء.. نحن لا نعلم من أين يأتون بهذه الأموال.. أنت أعلم يارب.. نأخذها لكى نقيم لفقراء بلادنا بيوتا، ومصانع، وجوامع، فقد أصابنا الفقر بعد أن أغلقوا دوننا أبواب العالم – باعدوا بيننا والصحاب القائمين فى بلاد الأجانب..

نحن هنا ياحبيبى للتزود بالمال.. هذه هى غايتنا، مبتغانا، لبيك اللهم ويطوف، يطوف..

فى الدورة السابعة، قرب نهاية الطواف، تبدأ عملية التساقط.. تزداد بكثرة، تشكل حول الكعبة دائرة هائلة من الحشود المشاهدة، الواقفة، الجالسة.. تتساقط الأبدان المنهكة..

هنا، ينهض أحد رفقاء على الانجليزى، يأتى من بين الحشود بجسده الفارع النحيل، يصرخ، نقودى.. نقودى.. لقد سرقت .. سرقت.. يتواثب جسده فى هلع وهو يبكى...

كانت دموعه تتساقط كقطرات من مياه ساخنة، ملتهبة، تتقاطر فوق قلوب الحجاج.. في تلك اللحظة المشوبة بالرضى، والتعب والمودة، ينهض على الانجليزى من مكانه القصى. يفرد «شالا» بينما ينهض آخرون من أمكنة متفرقة.. يفردون الشيلان، يجوبون، يجمعون صدقات الحجاج للصارخ المسكين، الباكى

المسروق.. تمتد أيدى الناس بكل الحب والأسى، تودع الشيلان نقودا.. عشرات من الأوراق الملونة، التى تعبر عن مدى إيمان ومحبة مقدمها.. ألوان من النقد العربى والأجنبى.. عليها صور الأمراء والملوك، ورؤساء الدول الكبرى..

ثم يكورون الشيلان، فى حين تساقط الصارخ الباكى مغشيا عليه.. يقترب حاملو الشيلان.. يشرعون فى حمل المغشى عليه.. يتجهون به إلى خارج الحرم.. مدهوشا كنت.. أواصل القراءة، وقد أحسست بالغضب، المنبث، المتوعد، يطالعنى من خلال الأوراق..

أسمع ياأخ، نحن لانود وجع الدماغ، خاصة فى هذا الوقت من الزمان الجميل.. أنت ميت.. ميت.. لأننا لانود تعكير صفو هذا الزمان الجميل.. فان كل شىء يبدو لى جميلا.. أفاهم أنت.؟؟

نحن شاهدنا من عصر الثورة حتى الآن، أحداثا جمة. أحداثا عظمى. يمكن للمرء أن يصبح حكاءً لو سمح الوقت. أو رتب تلك الأحداث، لكنه للأسف الخالص، لن يصبح غنيا، ثريا، يمتلك أرضا.. والأرض فى رأى الشخصى، ليست هى الأطيان، زرعا، لكن الأرض، أن تمتلك مدينة باكملها.. شوارعها، ناسها، تمتلك طبائعهم، أخلاقهم، حكومتها، أن تصبح حاكما، صاحب

قوة، سلطة.. والسلطة لاتأتى جزافا، بل تشترى تأتى بالفلوس.. أتعــرف مـــاذا تعنى الفلوس.؟! الفلوس أيضـــا، لاتأتى هكذا جـزافـا.. الفلوس لاتمنح، لاتسـعى إليك، بل تأتى بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، عليك أن تفعل كل الأفـعال الأخرى، الأفعال الصعبة التى لن تخطر على بالك..

نحن أبناء الثـورة.. ولدنا على كف الثـورة، لنجـد أبانا، الذى فى نعيم الجنة الآن، يمتلك أرضا، هذه الأرض التى تود تدميرها الآن...

كان لنا فى النكسة نصيب السبع، نصيب الأسد، لنا باع فى المهاترات العمالية والقيادات الطلابية.. كل انتفاضات الشعب كانت لنا..

نحن القيادات الأولى، لأية حركة تعبر عن رأى الشعب، أية مسيرة للشباب، فى الأصل، نحن مشعلوها..

اضرابات الشركات، المصانع، نحن فاعلوها، أو نحن بمعنى أدق، أصحاب النار، اليد المدمرة الخفية..

كل المظاهرات التى حدثت بعد النكبة، نحن الذين نضع لها الهشيم ثم نوقده. نشعله... ثم نطلب الحكومة للتفرقة.. لاخماد النار، لاطلاق الرصاص... هم يطالبون بالحرب.. ونحن نقتحم

الأبواب، كـيف.؟ ذلك هو عـملنا.. هـم يطالبـون بخـفض ثمن الرغيف، ونحن ندنو من ممالك الأكابر...

نحن الآن، تصالحنا مع المجتمع، ولا نود أن نخاصمه، نحن نقيم معه الآن، علاقات الود حتى نمحو كل ماحدث بالأمس، من تاريخ حياتنا، نحاول التقرب إلى الله، فهو الوحيد المصلح، ليس أنت. ولا مليون تافه مثلك... في حرب الاستنزاف. كان لنا هناك يد، في الجيش الثاني، والثالث.. رجال يعرفون كيف يستفيدون من التـواجـد بين الانقـاض.. وذلك ليس سـراً أذيعـه عليك. فالكثيرون من أثرياء البلد، عرفوا كيف يثرون من الحروب.. لعلك تعرف منطقـة بور توفـيق.. شـاطيء السـويس الغني، ملتـقى العائلات، شاطئنا كان لممارسة الحياة السهلة... تعبر إليه خلال لسان أرضي يبدأ من عند السويس، وهو الشاطيء، معمور بكل شيء جميل لخدمة الناس الجميلة، المكاتب، البيوت، الشاليهات، كل شيء كان جميلا، كان قريبا، ومتاحا، قريبا جداً من خط بارليف، لذلك كـان مـهدمـاً ومـهـجوراً من أهله، إلا من بعض الجنود الذين يفعلون الأفعال الصعبة، بمعرفة بعض أصحاب النجوم الصعبة.. كانوا يسربون بعض المعدات المفيدة والمثمنة.. في حرب ٧٣.. لم يكن هناك شيء صعب.. زمن سهل.. كل شيء كان متاحا ولا يحتاج لصعوبة... كيف نخاف ولدينا، نحن

أصحاب الأرض قائد أباح لنا كل شيء؟.

قال لنا أفعلوا كل الأفعال الجميلة وغير الجميلة.. ولكن جددوا مدينتكم... نود لو نكون أفضل من أوروبا، أحسن من أمريكا.. فتح لنا أبوابا لم نكن نعرفها، أن ننقل أعمالنا للبلاد الأخرى.. فما أجمل أن تستبيح أرض الأغراب..

كانت لنا الصولة الأولى، حين بدأ هو الجولة الأولى، المبادرة الأولى، أعطانا كامل الحرية لفعل الأفعال الشرسة لنثرى، نعلو، نعلو، لنكون نحن.. نحن.. نحن.

نحيت الأوراق جانبا..

كان مرسلها يطل على من وراء مركز قوى.. قوى..

قوة كبلتني.. ضالتني.. حجمتني.. حددت مكانتي بين جدران غرفتي.. قعدت..



(١٠)

الوشـــــاة

لم أغادر غرفتى..

تواترت فى الحى بعض الأقاويل المريبة..

تفيد بأن رجالا من قبل الحكومة، تمشط البيوت بحثا..

استغربت.. فقد اعتدت على رؤياهم يقومون بتفتيش رواد المقاهى المشبوهة، يفتشون الباعة، والحمير، والأحصنة... وفى أحيان كثيرة يضربون الممتنع من أصحاب البهائم المفلسين، ويأخذون البهائم، تاركين أصحابها منهوكى القوى، يصرخون باكين..

أوعزت ذلك لنشاط الحكومة المكثف فى البحث عن باعة المخدرات.. ارتعبت.. ولاحظت أن جيرانى الأقطاب لا يبالون بما يحدث.. وحين علمت بأن الرجال القادمين المفتشين، يصعدون بيوتاً غير مسكونة، وأخرى مأهولة بأهلها الذين يعاقرون الخمر والمخدرات بشكل فاضح، فيمكن للمرء أن يلمح كل أفعالهم دونما خشية، فهم لا يخشون أحدا، ففقد أوحت لى وجوههم

الواثقة بأن الأقطاب يملكون كل شيء، ويفعلون ما يروق لهم.. في الليل.. دقوا بابي..

رجال يشبهون الخنازير المستوحشة.. دقوه بقبضات حديدية، اهتزت لها الجدران وركن الأواني ورف الكتب.. ارتجفت..

وتذكرت على الفور رواية «الأم».. والرجال الدركيون يقتحمون بيتها، يفتشونه، يمزقون أشياءه بحثا عن منشورات.. فأحسست بشيء من بطولة زائفة، لا تجدي في هذا العصر المسيطر عليه الأقطاب..

صرعوا الباب وأقبلوا مسرعين.. يحدقون بوجهي المرتعب، المصمت، المستغرب..

بدأوا يجولون في الأركان، اعتقدت، في البداية، بأنهم من رجال المخابرات السياسية، لكن هؤلاء ملحمون بالسمنة لحد النفور والمقت.. لم يقلبوا شيئا. لم يفعلوا مثلما فعل الدركيون.. فتشوا بجهل يبعث على الضحك.. يفتشون فقط لارهابي. وإشعاري بأن بامكانهم فعل كل شيء دونما رادع..

تناول أحدهم أحد الكتب.. نظر فيه طويلا، كأنه يفك أحد طلاسم الحروف.. داخلني اطمئنان.. كان يمسك الكتاب بالمقلوب.. ضحكت في سري.. إنهم مخبرون مخنزرون، مما

نراهم فى الطرق العامة، والأسواق.. المتطوعون فى الأقسام لخدمة الشعب..

التقطوا من على المائدة رزمة الأوراق المرسلة لى. نظروا فيها بإمتعاض مفتعل.. ثم تركوها لأحدهم، واتجهوا شطر الفراش، رفعوا المرتبة.. ثم اتجهوا صوب الأوانى. رفع أحدهم غطاءها، نظر فيها وامتعض. كانوا يمتعضون بسرعة..

راح أحدهم يبحث فيما بين الكتب.. امتعضوا بشكل جماعى.. وتوقفوا.. سألنى أحدهم.

– أنت شيوعى.؟

ضحكت.. أهذا آخر مافكروا به؟ قلت..

– ماذا تقصد.؟

وتوقعت أن يرفعوا أيديهم ويكيلون لى الصفع.. لو رفضت الكلام، ولن يخلو وجهى من بصقاتهم، فتحفزت نفسى استعدادا لذلك، تصالبت أعصابى.. كانوا يتحركون ليعيدوا النظر فى الأشياء..

هاهم الأقطاب يمارسون علىّ طغيانا جديدا، يرغموننى على اليأس الكامل من مجرد التفكير فى مواصلة حياتى، فلا نجاة.. بعد.. من أى شىء.. أرغمونا على مقت الباغى الطاغى، وكنا

مكتوفى الأيدى.. أرغمونا على كرههم ونبذهم بتفشى الغلاء الفاحش وطرح المواد الفاسدة، تلك الغالية، غير المستباحة لأمثالنا...

أعادوا بناء الإنسان الثرى جدا والمعدم، وأباحوا على الأرض ممارسة الفساد، حتى انبعجت بالمقت،.. أوقدوا مراجل الغضب والغليان، وإذا طفحت الصدور بالكلام، جاءوا هم، أنفسهم الذين أوقدوا النار، ليخمدوا النار بالرصاص، بالنفى والاعتقال، إلصاق التهم والعقوبة، هاهم الأقطاب يتواطئون مع الخنازير، يقولون، أنت شيوعى..

تذكرت تحت أبط، سد خانة، رامبو، السورى.. الحلقة السفلى المغروسة، لم تزل فى الطين، تنتظر الصعود، الثراء..

قال أحد الرجال – يقولون إنك شيوعى..؟

استشعرت بعض الهدوء، قلت:

– وماذا لو كنت .؟ هناك الكثيرون منهم، البلد ملآنة بهم، هل كلهم تفتش بيوتهم.؟

لم يجب أحد.. يولوننى أقفيتهم الغليظة..

كانوا ينسلون إلى الخارج.. ويتلاشون.

إلا أننى كنت أحسهم متناثرين حول الغرفة..

ظللت أحسهم بالأركان..

(١١)

الموت

توجب علىّ فعل شىء، أى شىء يوازن نفسى الغارقة فى اليأس والقتامة..

نفسى المتقوقعة على نفسها فى ضحالة الانتظار للموت..

الموت البعيد القادم بتمهل، يتبختر، يحاصرنى، يسد علىّ منافذ الهرب، يغلفنى بنوع من شجاعة زائفة، مستمدة من خوف كامن، متربص. لكنها شجاعة على أية حال..

للأقطاب أذرع أخطبوطية ممتدة على رؤوس المدينة، هناك. حتما، أقطاب آخرون، يساندون هؤلاء، يعيشون وراء المقاعد المهمة.. يتربعون، بحق، على عروش الوطن - الوطن المجهد - أمتعض.. أمتعض..

إنه الزمن المتعفن، ذلك الذى أباح الثراء.. فجاست رؤوس الغجر فى رؤوس الأعراب، القائمين فى براميل الزفت والقطران.. تبادلوا الرؤوس، الأماكن.. منحوا الأعراب رؤوس

الفجر وأخذوا النفط.. سرقوا وجاءوا، وجاءوا وسرقوا.

وسـرقـوا - حين انكشف أمـرهـم المشين فى بلاد العـرب، استردوا رؤوسهم، وباعوها لبلاد تصنع المخدر الأبيض، وفعلوا كل الأشيـاء - إن لم تَلِص فى عـهد الانفتـاح، فـأنت جـائع أو عبيط.

خطر بذهنى ذلك الزوج الحاضر الغائب، سد خانة... كيف تسنى له الصمت.؟ السكوت على جسد دودى، المنتهك من قبل الأقطاب؟ كيف سولت له نفسه قبول ذلك.؟ يقول البعض إنه قد لُصَّ، سرق، فى الزمان القريب، أحد مستخدميه الأجانب. ثم قبض عليه، ثم نزح من شارع فؤاد، إلى هنا، وتزوج دلال... كان قد خبأ مسروقاته فى مكان ما حتى يخرج من حبسه.. النقود هى حصنه الآمن من عذاب الحبس، ففى الحبس تكون ملكا لو امتلكت نقودا، فى المدينة تصبح مرتاحا لو ملكت نقودا.. فى الأرض جميعا تشعر بقواك..

لكن سد خانة لم يخرج من الحبس صحيحا، لقد أمات الحبس، به، رغبة النساء. أصابه الارتخاء.. شرب الخمر والمخدر ليدعم الرغبة الراكدة، لكن سدى، الرغبة أيضا تتخدر، تنام.. يعارك نفسه.. يستنهضها، تأبى القيام.. يفقد الأمل فى مزاولة الرجولة... يجد فى مجالسة الأقران، القاعدين بلاهوية الرجولة..

يلتفون حوله، يستحلبونه، ويضحكون، ويشعرونه بأنه أفضل الرجال.. رجولة يفقدها، أيضا، حين يلف الليل البيت وامرأته، يحاول الدخول... حرث الأرض.. عودة الطفل إلى الرحم.. شبق الرحم المنتظر الطفل العائد.. لكن الطفل يعود محملا بالفشل.. بالصراخ المكتوم.. تزيحه هى.

– لقد أتعبت أعصابى.. أثرتنى بلا فائدة، قتلوا فى الحبس رجولتك، بضاعتك.. أنت الآن بلا بضاعة..

سد خانة، هذا اسمك.. أطلقه عليك الصحاب حين وجدوك تعشق النقود، تلك التى تعوض الرجولة فيك.. تعشق البقاء فيما وراء الجدران لتكون بعيدا عن امرأتك التى تسخر منك، من طول قامتك، وعلو صوتك، جهامتك وزيف أفعالك.. لتكون محبوس فى وقت حاجة أطفالك إليك لوجودك كأب.. أحقا أنت أبوهم.؟ ما أدراك.؟ إنك تشك فى ذلك، ولذلك، قبلت أن تكون سد خانة، لأى قطب يتعرض للحبس، تاركا له مهمة رعاية بيتك..

أنت تعرف أن أرضك تحرث دونك.. وتتعامى، وتوعز ذلك لبيئة المرأة الخائنة اللعوب، التى لم تصطبر حتى تخرج.. وهاهو أنت خارج القضبان وخارج بيتك، ماذا فعلت؟..

رأيت أن أثير سد خانة من هذه الزاوية.. بامكانى تحريضه،



هذا أولا.. ارتحت قليلا لهذه الفكرة.. بإمكان سد خانة إثارة بعض أقرانه..

كان فتحى، تحت أبط، يخايلنى على الرغم من كراهيتى الشديدة لتطفله على أفعالى وترصده لتحركاتى وكأن كل حركة أفعلها ما هى إلا موعد مع دلال.. نعم فتحى.. جُند ليكون رقيبا على دلال.. معلقا دائما تحت إبطها، أينما حلت يكون، يحل، يكاد يذوب فى خيالها عشقا... هاهو يمضى النهارات، محبا، مكبا، هائما، تشحن رغباته المؤجلة بنظراتها المستهزئة حينا والعطوفة حينا... يفح كالخيول المجهدة بآخر الليل.. ينتظر أن تدعوه من فوق الرصيف، أسفل الشباك، ليدخل فى غيبة سد خانة، ليمارس حقا حسبه له.. لكنه يظل قاعدا.. بينما يدخل أحد الأقطاب ويغيب.. ثم يخرج.. فى حين يكون «تحت باط» قد هده اليأس والوجد.. وينتظر أن تدعوه فى الغد.. لكن فى الغد يتبدل القطب.. يقضم تحت إبط أظفاره.. لقد آن له أن يمنع الداخلين ليلا، إلى بيت صديقه الأوحد.. هذه زوجته وأطفاله الصغار، وهذا البيت بيته.

على تحت أبط أن يفكر بحاله، بنفسه، فقد أصبح له قرنان.. قوادا.. قرناك معلقان بالداخل.. غدا.. أو بعد غد يظهران على جانبى الرأس، فما قولك؟ مامصيرك.؟.

المليك أنت .. أنت المليك، والملك.؟. أنت الشـاب المتـيم بحب جارتك.؟ لقد توجب عليك أن ترعـاها من شرور الآخرين، لا أن تعشقها، تحرس عشاقها... لم لا تتمرد.؟.

خطر بذهنى حسن رامبو.. لص اللصوص المفتخر، المتعالى، خالع قميصه، شاهر مطواته التى لم يلوثها بنقطة دم، على الرغم من المعارك الصوتية الفارغة التى يخوضها، وأعداد الرجال ذوى السيـوف والخناجـر، والحناجـر، حتى يخـيل للمرء أن الدم هنا سـوف يغـمـر الشـارع ومـداخل البـيـوت.. رامـبـو، ذلك النقـاش الماهر.. تارك صنعته، وسوقها الرائجة، ليقتعد الرصيف.. يلتقط من الريح رزقه، والصـحراء، ومن صدقات الأقطاب، فـالنقود التى تذل الفرد لا تسمى نقودا، بل مذلة، أداة لتفريط الكرامة، إهدار الانسـانية، يجب أن يثرى الفرد بلا تعب. فـإذا ضـاعت بلا تعب، فـا حزن ولا غـضب.. فنحن لا نحب الغـضب.. هذا فكر رامـبـو، عاشق مجالس سلسلة الأقطاب الوسطى..

يمكن لرامبو أن يعود لنقش جدران المبانـى. ليصبح مقـاولا.. العمل يمنح الانسان طاقة تساعده على التمسك بكرامته..

فتاتك الحلوة، مـحبوبتك الصغيرة، تهواك.. لكنها تبصرك دائم القـعود مـثلهـا. هـى خلف الشبـاك وأنت فـوق الرصـيف.. هن لا يحببن الكسالى، القاعدين. ولا يأتون بالنقود.. ماذا تعمل.؟

يقولون عنك، إنك تسرق أو تبيع الصنف.. وتتعاطى حقن الماكس، وأنت الشاب الوافى، اليافع.. الحب هو معيار الانسان، يقاس الانسان بتجاربه الأخلاقية...

فلم أنت ساكت.؟ الساكت عن الحق شيطان أخرس.. إفعل شيئا، إرفع فى الوجوه صوتك، وجوه الأقطاب، أسيادك. هؤلاء هم نتاج العهد البائد.. تمرد أنت.. تمرد...

وتذكرت السورى، السورى.. سوف أذهب إليه. إنه ليس باللص الجبان، لم يسرق يوما جيرانه، هو محب لهم.. يطامنهم دائما بأفروله المشحم الذى يوحى لهم بأنه ميكانيكى، وليس لصا..

مابالك لو قبض عليك.؟ لو أودعوك السجن.؟ ماهو موقفك.؟ أنت الفارع الطول القوى.؟ أنت الفرع المائل من عائلة الهلباوى، الفرع المسكين، سارق الغسيل والدجاج، ثم سارق الدكاكين، لم يأتمنوك ويأخذوك معهم إلى الحج، لتثرى، أو مكامن المخدرات لتسمو قليلا، بل تركوك، فتطورت سرقاتك لتشمل الخزائن.. وحين تدهورت الأحوال عدت مرغما لسرقة الغسيل والدجاج. وابتلاع «البرشام» الرخيص، من ذلك العمل العفن، عدت للعمل العفن..



أيوجد من هو مثلك.؟ عطوفا.. ويعمل لصا.؟ يسرق الغسيل.. نفترض أن أصحابه فقراء مثلك. عرايا، أطفال، نساء.؟ مابالك لوجدت فى مسروقاتك ثيابا حريمى.؟ وأنت تمقت صنف الحريم، لما فعلته معك امرأتك الملعونة، المطلقة لخيانتها مع الولد القزم الكوافير.؟

لقد تركتك لأنك «حرامى» ولأن القزم كوافير..

أوضاع بغيضة تجرى على أرض الفولى.. ذووك الأقطاب يمارسون الفسق والخيانة مع امرأة صبيهم السفيه سد خانة..

كان جمعهم، كالمعتاد، فوق الرصيف..

كنت أدنو منهم بحذر.. قلت وكأننى قد حدثتهم بكل مادار بخلدى.

– يجب أن تفعلوا شيئا..

يتساءلون فى خبث.

– نفعل شيئا.؟

– تمردوا على هذه الأوضاع..

قالوا فى ضجر واضح غير فاهمين.

– نحن ولدنا هنا، تربينا هنا.

– صعدنا لنجد هؤلاء حولنا.

– نحن لا نفهم شيئا مما تقول.

– هم أولياء نعمتنا..

قلت.. وكنت أدرك أننى اهتم أكثر بدلال.

– وهل دلال كانت هكذا مثلكم.؟

قال تحت إبط بين استغراب الآخرين.

– نعرف قصدك تماما..

قال آخر:

– بل كانت أفضل..

– سد خانة هو السبب.

– بل أبوها.

– أمها.. ألم تكن تخدم الفولى فى أيامه الأخيرة؟.

– لا .. لقد فتحها سد خانة .. كان يأتيها كالثور، ثم دخل السجن..

– عندما خرج، أراد إغلاق أبوابها، ألا أنها أبت ، فلم يستطع كبح جماحها..

- لقد انفتحت كالبوابة الكبيرة،

- كالمبولة العامة..

قلت مقاطعا، مداعبا..

- ولماذا لم تغلقوا أنتم هذه المباول.؟

ضحكوا لمداعبتى باستهزاء. قالوا..

- وأين يتبول البعض.؟

-تزوجوا..

- أين المساكن.؟

صمتوا قليلا، أحسست بأننى أضرب على وتر حساس.

قالوا فى سهوم.

- لكنهم أقوياء. بيوتهم عالية.

- أنتم أكثر منهم قوة..

- نحن نريد فقط، بعض الذى أخذوه،،

- نريد أن نكون مثلهم.

- مثلهم.؟!

-لم لا ؟.

- حرام ؟.

- الدنيا هذه لمن استطاع..

- هم نالوا ما أرادوا نيله، وأنتم كما أنتم..

- سوف نأخذ..

- نعم سوف نأخذ.

- حين يعود الزمن ويعطينا وجهه.

كانوا يتحلقون بدنى وهم يصبغون وجوههم بالدهشة.. يصغون إلى باهتمام شديد.. اهتمام تدفق بغتة بأدمغتهم. أحسوا بانهم كانوا نياما، وبأنهم أمضوا أعمارهم عميانا، مساطيل، لم يع أحدهم لنفسه يوما.. لم يفكروا بأنه انسان له كيان خاص، مستقل..

ثم تجهموا فجأة، استشعروا المهانة.. ادركوا، بأنهم ماكانوا إلا بغالا تساق فى خظائر الأقطاب.. صبيانا ضعفاء.. دمى بأصابع الأقوياء.. اغتاظوا لحد البغض منى.. كأننى أعيد إليهم كيانا كان مفقودا.. مطموسا بالقيعان.. أنكرهم بأنهم مجرد ظلال، خيالات باهتة، فزاعات.. سد خانة، تحت إبط.. متعبون

بزمن الانسحاق، قالوا بغضب مستفز.

– كنت تعرف أننا نعرف ذلك..

– أنت تريد أن تصبح بطلا.

– ونحن نريد أن نعيش يومنا،

– أذهب عنا. أنت غريب علينا.

قلت وأنا أصد مد الموج الهادر.

– أنتم الأقوياء.. حاربوهم، لكم الحق فى مواجهتهم.

– نحن لا نريد منك نصائح.. نحن هكذا أفضل.

– أنت دخيل علينا..

ثم لفهم صمت غريب.. قلت..

– ما كنت يوما دخيلا عليكم، فقط أريد لكم الخير، كل الخير. إننى أدرك جيدا مصيرى. لقد حددوه وانتهى الأمر، فقط أردت أن أصب فيكم أسباب غليانى، فسوف أموت بهذا الغليان، وهم كما هم يظلون كما هم. يطلقون لحاهم على الخدوش، على التجاعيد، هم اللصوص القدامى، هم المتخفون فى حقائب السفر، التائبون الآن، القابع بعضهم تحت قبة المسجد القريب، منبعجون، يتفيأون تاريخ السلف الصالح، ويقولون أنهم سلفيون،

متقون..

حراس أبواب الجمارك أصبحوا سلفيين.؟!

اندهشوا، وأقدامهم تزحف نحوى؛ وكنت أقول..

– سلبوا كل شىء وأقاموا العمارات. صاروا ملاكا وارتاحوا وأنتم كما أنتم، ما ارتحتم يوما.

قالوا:
– نحن نرتاح لو خرست أنت.

تبادلوا النظر – بدوا كالمشدوهين.. توقفوا قليلا، كأنهم يدبرون أمرا. ثم استداروا. واتجهوا نحو الحقل.. فتحوا بابه وتواروا هناك.. حفروا تحت إحدى النخلات.. أخرجوا صندوقا صغيرا يحتوى على بعض الحقن.. شمروا الأذرع سألوننى:

– ماذا كنت تقول؟.

ارتجفت، تخوفت.. فقد حقنوا أنفسهم لكى يتناسوا، أو يدافعوا عن أنفسهم ضد الأقطاب.. هادئين. يودون سماع ما قلته، ثانية.. لكن سدى – لا فائدة.. لا فائدة..

ترنحوا وضحكوا.. ودخنوا السجائر، وكأنهم أشخاص آخرون، قساة، ملامحهم سريعة التغير، شرسة، تنذر بالخطر

الداهم.. تراجعت قليلا.. وكانوا يتقدمون.. ظللت أتراجع حتى التصق ظهرى بالحائط..

هذه هى النهاية المنتظرة.. تقدموا.. أخرجوا السكاكين، قالوا:

- نحن لا نريد نصائحك. أنت لست أفضل منا، نحن أفضل منك..

- سوف نخلص عليك الآن..

- لقد عشنا عمرنا كله لا نشعر بالمهانة، فى وجودك فقط شعرنا بالمهانة، أنت كلب. والذى بعثك فينا ابن ستين كلب.

لا أدرى كيف توقفوا.. كيف كفوا عن الكلام، ونصالهم المشهرة بوجهى.. أغوص فى داخلي المنقبض.. انتظر.. فى أى موضع من جسدى، ستغرس.؟ فى عنقى، أم فى كتفى.. ربما فى سيقانى.. ولم لا تغرس فى قلبى؟.. أم تراهم ينتوون ذبحى؟..

أغمضت عينى، أحسست بحلاوة أمنية العيش، أن أزاول حياتى.. أغمض عينى، مازالت، منتظرا، غرس السكاكين بقلبى. قالوا:

- أنت لعبة أرسلها لنا البوليس.

تركزت كل حواسى على هذه الأجزاء المرتعبة المتوقع غرس النصال فيها بقوة.. بقوة.. بقوة..

* *

لم أعرف كم من الوقت قد مضى، بعد أن تيقظت، لأجد نفسى مطروحا على فراشى..

لحظات مبهرة، تلك التى أعقبت فقدانى الوعى.. لحظات لم أدر ماذا حدث خلالها... آخر ما وقر بذهنى، شكل الوجوه الغاضبة والنصال، ظهرى الملتصق بالحائط.. كان بإمكانهم غرس النصال فى تلك اللحظات غير الواعية بجسدى. وإنهاء الأمر.. لكنهم تركونى.. تركونى.؟

هل تركونى حقا.؟ هل أنا الآن فى القبر.؟

إننى أشعر بقوة غريبة تكبلنى كأنها الكفن..

فى أى جزء من جسمى غرسوا نصالهم.؟

لم أرد البحث فى المنطقة التى يمكن أن تكون قد خدشت، فأنا حتى الآن لم أحس بأى وجع، لأننى لم أعد أحس، أصلا بأجزاء جسمى.. أشعر فقط بدقات قلبى.. يدق.. ويدق... وهذا الظلام الكثيف القابعة فيه عيناى.. أخاف الآن فتحهما..

سوف يطالعنى بالتأكيد مناظر مخيفة، من تلك التى يتحدثون عنها عند نزول القبر..

ارتعدت، وتخيلت نفسى أتحرك ، أدفع هذه القوة المكبلة .. أحرك ساقى.. خمشت بأذنى بعض أوراق. كانت عند ساقى، ثم تساقطت على الأرض.. وتنبهت بسرعة فائقة بأننى مازلت على قيد الحياة، فغمرتنى سعادة قاسية. أدهشتنى.. لا يجب أن أموت..

هاهى حجرتى، مائدتى، كتبى، بابى، سقفى المشقوق، لمبة النور، فراشى، وها أنا، راقد، أفكر، لا خدش، لا ندبة، لا شىء يدل على ارتكاب جريمة.

بل أحسست براحة غريبة تنتاب بدنى.. لم أعرف بعد كم من النهار قد مضى وأنا نائم، فاقد الوعى، ومن الذى صعد بى، جاء بى إلى هنا وأنامنى.؟.. بعد لحظة، قرع الباب.. فزعت ولم أرد.. لكن الباب دفع.. لم أدهش كثيرا لقدوم دودى.. جسدها المرغوب.. وجهها الأبيض.. كل شىء أصبح عاديا، وقابل للدهشة، لحد العادة.. أغلقت الباب، وكنت أتحلى بسكوتى.. حين تقدمت منى، جلست، وضعت على حافة فراشى صرة ملفوفة، تحتوى على خبز وجبن أبيض، وشرائح من لحم محمر وحفنة من مكرونة وقالت..

– صحوت.؟

قلت على الفور.

– أنت مُعهم .؟

قالت وهى تفتح الصرة.

– أنا معك أنت..

مستغربا، قلت..

– أنت مع من بالضبط..

أنحنت تجمع أوراقى المبعثرة من فوق الأرض، اعتدلت وقالت:

– قلت لك معك أنت..

تخوفت من مكرها وقلت.

– كيف جئت.؟

– جئت إليك أنت..

– أنت مثلهم، تلعبين بى.

– كلهم كلاب.. خائفون..

– كيف تأخذين الكلاب فى بيتك؟

لم تأبه لسؤالى، قالت..

– كل..

قلت وأنا أرفض لقيمة أرادت غرسها فى حلقى، المتكلم.

– أريد فقط أن أعرف .. كيف تأخذينهم عندك.؟ تعشقينهم جميعا.؟

– لا أعشق منهم أحدا.

– رأيت بعضهم عندك.

رتبت محتويات الصرة وقالت:

– إسمع الكلام وكل..

أبعدت يدها وقلت..

–أريد ..

– لا تخف. طعامى تنظفه يدى.. نظيف، ليس به سم.

قضمت هى الطعام وقالت:

– إنهم يحاولون إمالة رأسى. لكنهم لن يستطيعوا ابدا.. لذلك هم يحاولون..

أكلت من المكرونة وقالت:

- تعرف. لو منحتهم مرة جسمى. سوف يقتلوننى. أو يبعدون عنى.. إننى أعذبهم بطريقتى، أعذب نساهم المتكبرات، لصوص، ومتكبرات. لصوص مواصلات عامة.

مددت يدى إلى الطعام، وقلت:

- أعرف أنهم يذهبون لسرقة الحجاج.

- أبدا.. ندبدأ البوليس يضيق عليهم الخناق. لقد عاد أغلبهم، وهم اللصوص الغلابة، لسرقة الغسيل والمحافظ وخطف سلاسل الحريم فى عز النهار.

قلت وأنا أمضغ قطعة لحم.

- وأبوك.؟ لماذا لم يفعل شيئا.؟

- أبى مريض منذ فترة، لم يعد يهبط الشارع.

تذكرت العجوز.. السباعى، إنه حقا لم يظهر منذ أنهى على مسامعى قص الحكايات.. أردفت دلال تقول:

- أبى كان يعمل لديهم من زمان فى أرضهم، ثم طلب أن يرتاح، فأراحوه ومنحوه بيتا، هذا البيت الذى نعيش فيه، وطلبوا منه ألا يغادره حتى يموت. ونحن طبيعى لا نغادر المكان.

- وزوجك.؟

– سد خانة.. هذا العبيط الخرع.؟

تحسرت فى تهكم وقالت:

– ذلك المتعفن.؟

– أليس زوجك.؟

– كان ذلك بعد آخر طفل، لم يقربنى بعدها، نعم. لم يقربنى.. ولن يفعل، لقد ختمت على نفسى ألا يقربنى أحد.

– كيف.؟

– كلهم يريدون وأنا لا أريد، كلهم أنذال، وأولهم سد خانة، فمنذ أحب جمع النقود، وأدمن المخدرات، وأنا أمقته..

ابتلعت لقمة مغموسة بالجبن وقالت:

– وحياتك. لو لم يسألنى الأولاد عن أبيهم ذات يوم لقتلته.

وساد الصمت بيننا، ثم قالت:

– أنت صحيح مرشد.؟.

– أنا .؟ إنهم يقولون ذلك.. أنا انتظر قتلى..

ترقرقت دمعتان بعينى – كانت يدها تداعب شعرى، بحنو، قالت:

- كنت أعرف أنك لست مخبرا. كما عرفت أنك حساس جدا. كتلك الجماعة التى تكتب الشعر.

قلت، وقد لمست فيها معرفة حقيقة لم يعرفها الآخرون بعد.

- الآن فقط. أتمنى لو أعيش.

قالت بثقة.

- سوف تعيش ولن يعترضك أحد.

تذكرت ليلة النصال، قلت.

- أحقا ماتقولين.؟

- صدقنى.

ثم حركت يدها علامة الثقة وقالت:

- أنا لا أكذب.. تعرف من الذي أنقذك أمس.؟

- من ؟.

- أنا ..

- كيف ؟.

- كنت بالنافذة عندما كانوا يقتربون منك.

- بالنصال.

– بالنصال والماكس والمخدرات.

– كانت ليلة سوداء.

– كان فتحى هو الوحيد الذى كان يريد قتلك.

– مخبرك الخاص ؟.

– تقصد كلبى الوليف.؟
داخلنى شعور مبهج.. ابتسمت، وقالت:

– لذلك، عندما دعوته أمس. جاء مسرعا، إنه تحت إبطى أعرف كيف أسوسه، ثم أمرت سد خانة أن يفرقهم جميعا، ويأتى بك حاملا إياك، فتحى وحده، وكنت معه..

– أنت تحبينه.؟

– أنا لا أحب الكلاب، وهذا الحى ملآن بالكلاب.

– لكن يمكن لفتحى أن يشى بك عند الأقطاب.

– لن يستطيع، ولو فعل، سيحرم من مرافقة ظلى، أقول لهم إنه حاول تقبيلى، وهم يعلمون جيداً أنه يحبنى..

بالرغم من ذلك لم أطمئن، لم أصدق، ما تقول.. كيف يمكنها حمايتى.؟ وهم القادرون على قتلى وقتلها وقتل الجميع، قلت:

– الحياة فعلا حلوة، ويجب أن تعاش.

- سوف تعيش، وسوف نقتلهم معا. أو نسجنهم معا.

- أهذا معقول؟.

تناهى إلى سمعى دبيب أقدام.. تصعد الدرج، ارتعشت، وثبت هى إلى السطح، لتتوارى به، وقد أيقنت أن قدومها إلى لم يكن إلا للايقاع بى، وأن ماقالته كله كذب.

لكننى أدركت أيضا. بأنها تحبنى بحق، فشعرت بالوجد، والروعة، والسعادة.

(١٢)

المدهوش

تهافت دلال المفاجىء.. اهتمامها البالغ، لحد عدم المبالاة.. سكان العمارة، احتمال يقظتهم الآن، فى الليل العملاق المغلف بالسواد والضغائن، وحياكة المكائد المصنوعة سرا .. مكائد فى الأدمغة ، وخلف جدران البيوت..

هذه هى نهايتى..

لكننى لم أعرف بعد، بأية مكيدة سوف أقتل..

حتى الآن هم يناورون، يشاغبون.. يتناثرون ويملأون الدنيا، من حولى بمشاعر الغضب..

انتظرت أن يدقوا الباب.. على أننى لن أفتح لو دقوا .. سأتركهم يحطمونه ويدخلون، فسوف يجدوننى قاعدا أنتظر.. تبادر إلى ذهنى المذعر، شكلهم وهم يمزقون بدنى.. فانكمشت مرعوبا... فكرت فى تواجد دلال بعراء السطح، امكانية تحمل جسدها لبرد الليل والظلام..

كان الصمت قد أطبق على الكون المحيط، فازددت انكماشا.. أرغب الآن، بشكل ملح، لبيتي القديم. لطفلي، لساعة واحدة قبل انتهائي.. انتظرت أن يدقوا الباب.. لم يفعلوا..

أيمكن أن يكونوا قد شهدوا موقع اختبائها، وأخذوها.

أبهذه السهولة تؤخذ هي.؟

هل قتلوها في صمت.؟

هي بالسطح وأنا بغرفتي.. كيف يفعلون.؟

يمكن فعل ذلك بها لو وجدوني ملتصقا بها. بأغوارها، حقا. إنني لم أدخل بعد بأغوارها.. لم أعرف خباياها.. يقولون إن جسدها أبيض كالرخام، وأن كنوزها لم تفتح بعد، لأحد.. لأنها لا تعرف بعد أين تكمن هذه الكنوز..

هل بامكاني كشفها.؟ تلك الكنوز، أين ترى تكون.؟ في منطقة ما من الصدر .؟ كعبي القدمين.؟ في العنق.؟ أعلى الكتف.؟ بسلسلة الظهر.؟ خلف الأذنين.؟ فوق الجفنين.؟

لو تدركها اليد.. تقرع أبواب الوجد الغافي، الشبق المطمور، تفتح أبواب الحب.

هل تفتح لك أنت دون الأقطاب؟

أليسوا هم أول الفاتحين.؟ وإن لم يكونوا فهم أراذل الرجال، سوف أكشف هذا المستور، وليكن بعد ما يكون..

لكن في العشق مهانة، استفزاز..

لماذا الآن.؟ في الليل العملاق.. تتهافت؟.

في العشق استنزاف لدم البدن، لخلايا المخ.. بشكل دائم.. أيمكن أن تكون هي آخر مصاصي نخاع الظهر.؟ كنت أمارس، في الزمن الفائت حق الزوج المشروع تحت ستار الواجب، بقلة، حتى لا أفقد ذاتي.. أقتل في الرأس المهموم بزحام الأفران والثلج السائد، وتحديد اقامة ناس خلف صفائح أكواخ مثقوبة.. الشوق إلى الجسد المتواري يؤرقني، والخوف.. فأصب مخاوفي على أوراق منثورة على مائدة حبلى بهمي..

همي الأوراق الآن والأقطاب..

أمرشدة هي تختبيء وراء شبق الجسد؟ متواطئة معهم؟ تود قتلي، خلية بعد أخرى ؟ قالت لن يستطيعوا قتلك.. وسوف تقتلني هي..

لم يدقوا الباب، وكان الصمت..

أقابعون هم هناك؟ أتسربت هي تاركة إياهم لي؟.

تقاربت جدرانى، والكتب، تقاربت.. تضاءلت فى داخلى.. تعثرت أنفاسى.. تقت لشىء من هواء نقى، للسطح، للعالم، لبيتى القديم..

أما زالوا قابعين هناك.؟ أم تراهم ذهبوا؟.. أم أننى تخيلت أنهم كانوا قادمين.؟

شغلت نفسى بجمع الأوراق المتناثرة، تلك التى لم تجمعها دلال، أوراق لم أقرأها بعد.. لمحت عينى رداءة الخط المتعرج العجوز، يتوكأ على السطور.. أنا الانجليزى..

أسرعت بسد ثقوب الباب بقطع من هذه الأوراق.. لعنت نفسى فاقدة القدرة على المواصلة. الأوراق بيدى تثقب رأسى.. إن لم تكن تعرفنى فأسأل عنى.. أنا منظم هذه المنطقة، جدى أخذها ونحن ورثناها.. قال لنا قبل أن يموت. ابنوا عليها بيوتا، وأنجبوا الأطفال، أطفالا كثيرين، ولا تجعلوا أحدكم عرضة للضاربين.. اربحوا المال من حيث يكون.. لاتتعبوا.. اجعلوا الأدنياء منكم خداما لكم.. وعليك أن تعرف، أن أيدى رجالنا متوقفة عنك بأمرنا، لأنك أحد المرشدين الفاشلين، العاملين لحساب ضابط يعيش فى ماء البطيخ، لم يعرف بعد من نكون، لم تدركه، بعد، شفرات مطواة الرجال، لم تترك بوجهه خدشا، ليعرف الناس أنه ضابط سفيه، وخائب، لم يستطع أن يميز بين

الأهل والعشيرة.. نحن الرجال الذين باعوا ضوء القمر، فى ليالى القمر، واشتروا الحياة بعد العام الواحد والثمانين، حين كان البيع والشراء متاحا.

ليس هذا هو المهم، الآن.. بل الأهم، هو قتلك، منحك فرصة، للعودة إلى السجن أولا.. أمنحك الفرصة الآن لترقية ضابطك. فالهلباوى.. هو.....

وكنت قد نقلت تلك الرسالة على ورق من عندى بشكل يناسبنى، ولم أستطع تكملة بقيتها. لأن الكمالة هى مجرد أكاذيب، وزيف، فلا يمكن أن يرشد على الانجليزى على أخيه الهلباوى، ومن ثمة، لا يمكن لهلباوى أن يرشد عن على..

وأنا لست مرشدا، ما أنا إلا مجرد منفعل.. وسوف يموت انفعالى بعد قليل..

فتحت بابى، والفجر لا يزال معلقا فيما بين السماء والسطح، رمادى اللون، يغزو الأركان، ويتكلثف بضباب آت من بعيد. لم أعر لوجودهم، لو كانوا هنا، أى اهتمام.. إلا أنهم لم يكونوا هناك... بحثت عنها برغبة متأججة...

سمعت صوتها يتردد عبر اللون الرمادى، فانتعشت برجفة، – أطمئنى.. لقد ذهبوا.

كنت اتطلع إليها، مصلوبا، أيمكن أن تكون قابعة كل هذا الوقت.؟ لم أرد فاتجهت إلى غرفتى وهى بأثرى.. وقد كتمت رغبة

الشبق المطلة من عينيها، رغبات الكلام...

توقفت كأنها تود الانتقام منى...

تعرينا...

غصت فى أغوارها.. أغوار ابتلعتنى، ابتلعتنى..

أحسست بأننى انتهك حرمات الأقطاب...

أفعل ما لم يقدروا على فعله.

فقد قالت لى عندما خرجت من أغوارها.

- أنت شيطان خطير.

إقشعر بدنى حين قالت، بأننى أشد شيطنة من الأقطاب!! وأننى قد انتصرت عليهم.. لو كانوا هم مرسلوها إلى هنا.. قالت.

- يجب أن تعيش لأجلى.

تناسيت كل شىء تقريبا، قلت:

- أنت أكثر حلاوة مما كنت اتصور.

كانت الشمس تتسلل عبر النافذة وتلامس وجهينا، قامت تقول:

- إنهم عيال يلعبون بالنار.

- سوف يحرقونني بها.

ممدد على فراشى.. ينتابنى شعور لذيذ، شعور بالاسترخاء ورغبة فى النوم. قالت :

- يحسبونك مرشدا.

تثاءبت.. ولم أفكر فى خطورة ذهابها فى عز الصباح، تثاقلت تلافيف رأسى، قلت.

- كنت أفكر فقط فى كتابة حكايتهم..

لم استطع فى هذا النهار الجاثم كتابة كلمة واحدة.. استغرقت فى نوم لذيذ..

حين صحوت، انتظرت قدومها مساء، موقنا بأنها مجندة من قبلهم، لقتل خلايا رأسى.

أحقا يمكن فعل ذلك معى.؟

بكل هذا العنفوان والعنفوان والعشق تقتلنى.؟

وجدت أوراقا جديدة فوق وسادتى، مكتوبة بخط ردىء تفيد بأن الهلباوى يدلنى على عملية تهريب كبيرة سيقوم بها على الانجليزى.. ضحكت، وألقيت بالرسالة جانبا. وانتظرت دودى، لم تأت.. فنمت.. وحلمت بأننى أضاجعها ونمت..

فى الصباح حملت أوراقى، وهبطت الدرج ببطء.. لم أعد أريد

سواها.. فقط هى.. دودى.

وقفت فى منتصف الشارع، ممسكا بأوراقى..

خرجوا على من كل زاوية، وكأنهم كانوا يراقبوننى..

تجمعوا حولى، وأنا أقول صائحا:

– صدقونى.. إننى واحد منكم..

التفوا حولى – سد خانة، تحت إبط، رامبو، السورى، نسوة ورجال، فتيات وصبية..

خلعت لهم قميصى.. كشفت عن صدرى.

– هاهو أنا أمـامكم.. أقـتلونى.. لقـد أخطأت فى حـقكم فاقتلونى..

قالوا:

– لن نقتلك...

نثرت أوراقى عاليا.. تطايرت.. ثم تساقطت فوق رؤوسـهم، وتحت أقدامهم المتقاربة.

تمت

١٩٨٧

اسكندرية

صدر من هذه السلسلة

١- مختارات من الشعر العامى................................ شعر
٢- قصائدمصرية...شعر
٣- صوت البرية..قصص
٤- دراسات أدبية................................ تأليف: حسين عيد
٥- الزمن الحرام.......................... شعر: محمد الشرنوبى شاهين
٦- كتاب الأمكنة والتواريخ.................. شعر: عبد العزيز موافى
٧- أول الجنة أول الجحيم.................. قصص: سعد الدين حسن
٨- ضل من غوى وسر من رأى.............. شعر: صلاح اللقانى
٩- الزهرة الصخرية.........................رواية: محمد الراوى
١٠- سليمان الملك............................ شعر: محمد سليمان
١١- دائرة النور والظلام...................... قصص: محمود علوان
١٢- مكتوب على باب القصيدة.............. أشعار: عماد غزالى
١٣- صباح الحب الجميل...................... قصص: رفقى بدوى
١٤- انفلات.................................... قصص: مصطفى الأسمر
١٥- فى ذاكرة الفعل الماضى.......... شعر: محمد صالح الخولانى
١٦- قطوفها وسيوفى.......................... شعر: سمير درويش
١٧- أولاد المنصورة........... رواية عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
١٨- الحصار...................................... قصص: وفيق الفرماوى
١٩- احتمالات................................... شعر: مفرح كريم
٢٠- ثلاث دقات للأجراس.........................قصص: فتحى فضل
٢١- طائر الشمس.........................شعر محمد مهران السيد
٢٢- بكات الدم.................................. قصص: حجاج حسن
٢٣- صلوات خاصة......................... قصص: عبد المنعم الباز
٢٤- مكابدات سيد المتعبين.................. شعر: السماح عبد الله
٢٥- الأمثال فى الكلام تضىء.................قصص: محسن يونس

اصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

* ضمن اهتماماتها المتعددة بالنشاط الثقافى بمختلف أشكاله، تعنى الهيئة بإصدار عدة سلاسل من الكتب هى:

أولا: سلسلة «أصوات أدبية»

- مخصصة لإبداع أدباء مصر فى كل مكان فى الشعر، فى القصة فى الرواية.
- تصدر اسبوعيا.

ثانيا: سلسلة «كتابات نقدية»

- تواكب الإبداع الأدبى بالدراسة والتحليل، ولاتغفل النظريات النقدية والعربية والعالمية، وتفتح صدرها لكل فكر جاد يتسم بالطابع النقدى
- تصدر شهريا. في منتصف كل شهر.

ثالثا: كتاب «الثقافة الجديدة»

- يتناول حياة أبرز المفكرين وأعمالهم وأدوارهم فى إضاءة العقل والوجدان ودراسة تحليلية لإنجازاتهم فى خدمة الفكر والإبداع العربى.

رابعا: سلسلة «مكتبة الشباب»

- تأخذ على عاتقها مهمة التثقيف العام بتقديم كتب مبسطة تتناول مختلف ألوان المعرفة.
- تصدر أول كل شهر.

خامسا: كتاب الأدباء

- يهتم بتقديم الواقع الثقافى والإبداعى لكل إقليم على حدة ويُعد بمثابة بانوراما كاشفة لحركة الإبداع الأدبى فى أقاليم مصر.
- يصدر شهريا

سادسا : إبداعات:

- كتاب شهرى يهتم بنشر إبداعات الشباب دون الخامسة والثلاثين.

رقم الإيداع : ٩٥/٢٢٨٧

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096